

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

- المؤمن لا يسقط وإن اهتز - فتح الله گولن
- الثقافة التسامحية لدى العثمانيين - أ.د. سعاد يلدريم
- مفهوم الحياة في القرآن الكريم - أ.د. الشاهد البوشيخي
- محاور أساسية في فهم القرآن - أ.د. علي جمعة
- الأبرو، فن الرسم على الماء - بيرول بيجر



لقد اعتاد الذين نذروا أنفسهم لسلوك طريق السعداء - في الماضي والحاضر - ألا يطالهم اليأس والقنوط،
وآلاً يهتزوا ولا تأخذهم الحدة والغضب حتى وإن تعرضوا من كل جانب لمشاعر العداء والكراهة..
فهم يدفعون السيئة بالحسنة فيقومون بذلك بإصلاح جميع السلبات..

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

العدد السابع عشر - السنة الخامسة (أكتوبر - ديسمبر) ٢٠٠٩

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:

Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş.
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز

مصطفى طلعت قاطرجي أوغلو

المشرف العام

نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير

هانئ رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير

أشرف أونن
eonen@hiramagazine.com

المخرج الفني

مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيسي

HIRA MAGAZINE
Kısıklı Mah. Meltem Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع

٧ ش الزاوية - الحي السابع - م. نصر/ القاهرة
تليفون وفاكس: 20222631551
الهاتف الجوال: 20165523088
جمهورية مصر العربية

نوع النشر

مجلة دورية دولية

Yayın Türü

Yaygın Süreli

الطباعة

Çağlayan Matbaası
İzmir - Türkiye

Tel: +90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع

١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم

pr@hiramagazine.com

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتجاوز أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمظهر القرآني الإيماني في تألف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والمهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديداً لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقوقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسباً.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كُتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجماً إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تتابع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

المؤمن ووحدة الحياة

في

في المقال الرئيس للأستاذ "فتح الله كولن" غذاء حيز للعقل والوجدان لمن يلزم نفسه بالتأمل والتفكير. وهو يرسم طريقاً سهلاً للمعرفة والعمل معاً، والولوج إلى فجاج الفكر بقلب ملؤه الاطمئنان والثقة. فالمؤمن - كما يصفه الأستاذ - قد تعصف به العواصف وتتناوشه المحن والخطوب، وقد يهتز بعض الشيء وقد يترنح، لكنه يظل متماسكاً فلا يسقط أرضاً ولا يركع ذلاً ورعباً. فالألم مهما طال فهو إلى انحسار، أما الخوف فلا يقف عند حد، بل يظل ممتداً في النفس حتى يفرغها من الشبهة والغيرة والشجاعة. ثم إذا اهتز المؤمن كان ذلك دليلاً على وفرة الحياة عنده وعلى رهاقة شعوره وثقافة حسه ويقظة ذهنه، لأن ميّتي الشعور وغليظي الأحاسيس ومتخشي الأضلاب، لا يهتزون لشيء لأهم موتى وإن كانوا يحشون على قدمين.

والأستاذ "عماد الدين خليل" يتحفنا بوحدة من مقالاته الجادة عن "غائبة الوجود في الأدب الإسلامي" في تحليل رائع للرؤية الإسلامية لغائبة الكون ووحدة الحياة، متخذاً من بعض الصراعات الدرامية التي تدور عليها محاور رواياته ومسرحياته نماذج لتقلم هذه الرؤية الإسلامية. وهو ينجّم بحثه عن "الدراما الإسلامية" فيقول: "إنما الصراع بين العقل والروح والوجدان والجسد، ولن يقدر لأحد فيها الخلاص إلا من خلال بذل جهد استثنائي للتحقق بالوفاق. أما الأستاذ "البوشيخي" رجل الفكر الرصين، فإنه يحدثنا عن "مفهوم الحياة في القرآن الكريم". هذا المفهوم الذي كثيراً ما يغيب عن أذهان المسلمين أو يختلط بتصورات فاسدة تفقده جوهره وحقيقته، كما أنه لا ينسى أن يحلل لنا حقيقة الموت في التصور الإيماني، ومراحل الحياة والموت، مؤكداً على المعنى الحقيقي للحياة وكيف يصير هذا المعنى دافعاً إلى إثبات الآخرة، ثم يمضي إلى أكثر من ذلك فيعزو سبب الوهن الذي يعاني منه المسلمون اليوم إلى فساد التصور لمفهوم الحياة كما يصورها القرآن الكريم.

أما الأستاذ "رمضان البوطي" فيؤكد في مقاله الموسوم "لا سلام مع الظلم ولا إرهاب مع العدل" على أن ما يعاني منه العالم اليوم من اضطرابات وقتول وسفك دماء، يعود بالأساس إلى جملة من المظالم التي يتجرعها ضعاف البشر من الأقوياء المتسلطين، وإلى فقدان "العدل" الذي يورث اليأس. وفضيلة الأستاذ "علي جمعة" يقدم لنا على صفحات "حراء" دراسة قيمة عن لوازم العقل التفسيري للقرآن الكريم، مع استعراض شامل وعميق لآراء جمهرة من كبار المفسرين.

وبعد، فإن "حراء" تعتذر للأساتذة الذين لم يسعفنا ضيق المجال للتبوية بمقالاتهم التي تظل مهمة في تشكيل الإطار العام لهذا العدد من "حراء" والله من وراء القصد.. ■

المحتويات



- ٢..... المؤمنين لا يسقط وإن اهتز / فتح الله كولن
- ٧..... العلم والإيمان متعة العقل والروح / العطري بن عزوز
- ١٠..... غائية الوجود في الأدب الإسلامي / أ.د. عماد الدين خليل
- ١٦..... مفهوم الحياة في القرآن الكريم / أ.د. الشاهد البوشيخي
- ٢٢..... لا سلام مع الظلم ولا إرهاب مع العدل / أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي
- ٢٥..... الثقافة التسامحية لدى العثمانيين / أ.د. سعاد يلدريم
- ٣١..... بين الشام ومكة / جمال الحوشبي
- ٣٥..... أنا رثة عبد الله / أ.د. عرفان يلماز
- ٣٩..... محاور أساسية في فهم القرآن / أ.د. علي جمعة
- ٤٥..... السوق / أ.د. حسن الأمrani
- ٤٦..... بنائية القرآن الجيد دعامة من دعائم الحتم / أ.د. أحمد عبادي
- ٥٢..... الأبرو، فن الرسم على الماء / بيرويل بيجر
- ٥٦..... عندما تحرك الفراشة جناحيها / صالح آدم
- ٦٢..... المسوّف / رمضان كربت
- ٦٤..... في القلب يا حراء / عادل سعيد القدسي

EGYPT

7, el-Baremea st, off al-Tayaran st. al-Hay al-Saabi
Nasr City-Cairo/EGYPT
Tel-Fax: +2022631551 Mobile: +20165523088

TÜRKİYE

Kısıklı Mahallesi, Meltem Sokak, No:5
34676 Üsküdar-İstanbul/TÜRKİYE
Phone: +90(216) 318 60 11 Fax: +90(216) 422 41 40

USA

The Light, Inc.
26 Worlds Fair Dr. Unit C Somerset,
08873 New Jersey, USA
Phone: +1 732 868 0210 Fax: +1 732 868 0211

SAUDI ARABIA

الوطنية للتوزيع
AL Watania Distribution
P.O.BOX 8454 Riyadh Zip Code: 11671 Saudia
Tel: +966 1 4871414
GSM: +966 504358213

SYRIA

GSM: +963 944 355675

MOROCCO

الدار البيضاء ٧٠ زقة سجلماصة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Tel: +212 22 24 92 00

YEMEN

دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة
Tel: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA

GSM: +213 770 625650

SUDAN

Tel: +249 918248388

JORDAN

GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES

دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Tel: +971 266 789920

المؤمن لا يسقط وإن اهتز

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩)

فتح الله كولن

في بعض، إلا أنه يمكن تجاوزها بمعرفة أسبابها والنضال ضدها بيمان وعزم وأمل، وإلا فإن الخيال والأوهام ستضخم صورة هذه المشاكل. كما أن السياسة إن تدخلت فيها واستغلتها فستكبر، وستبدو أكبر بكثير من حجمها الحقيقي، وتصل -نتيجة آثار التخريبات النفسية- إلى وضع يصعب الخروج منه. نحن نعيش اليوم مرحلة من المراحل التي يتكرر فيها التاريخ بعبء. فقد أحاطت بنا المآسي والمصائب والبلايا من كل جانب؛ كالزلازل والفيضانات والحرائق والضغط على الحريات وكنم الأنفاس... ولكن رغم كل هذه المظالم والبلايا لا زلنا نرى

إن الصورة الحالية للأوضاع صورة مرعبة، ولكن تجاوز هذه الأوضاع وتخطيها بالإيمان والأمل والتوجه إلى الله ليس مستحيلاً. فإن سار الإنسان نحو الشمس أو طار فإن ظله سيكون خلفه، ولكن إن أدار ظهره للشمس فإنه يبقى خلف ظله. لذا يجب أن تكون عيوننا مصوبة على الدوام إلى المنبع اللامتناهي للضوء. أجل، إن كل شيء كما عبر عنه الشاعر التركي "محمد عاكف" مرتبط بـ"الاستناد إلى الله، والتوسل بالسعي، والاستسلام للحكمة". ومما لا شك فيه أننا نعيش أزمت حقيقية متداخلة بعضها

إ



الساكيتين والصامتين المسلوبين الإرادة الخائفين حتى من التأوه أمام المصائب. ومقابل هذا نرى صنفاً من الظالمين، يظلمون الناس ويغدرون بهم، ثم يتظاهرون بالبكاء والشكوى ليقبلوا الحقائق رأساً على عقب ويظهروا المظلومين وكأنهم هم المظلومون. كما أن هناك بعض الكتل الجماهيرية التي نراها - لأسباب مختلفة - غير متوازنة في تصرفاتها، فهي على الدوام غاضبة ومحتدة. وهناك أوساط مختلفة كأوساط الإدارة الفاسدة والأوساط المتحكمة والأوساط المحرضة، والأوساط اللاهية التي لا يهمها شيء، والذين يعدون الخداع مهارة والسرقة شطارة، والانتهازيون الذين لهم نصيب عند هؤلاء، والذين يتحصنون وراء حصانهم القانونية، والذين يرفعون شعار "الحق للقوة" ويستخدمونه

حتى النهاية، من أئمة الظلم، والمرشدين والأئمين والمختلسين وتجار الأسلحة وشبكات تجارة المخدرات والمدمنين عليها، وتنظيمات ملعونة أخرى لم يعط لها اسم بعد... كل هذه الأوساط تدفع الجماهير الغاضبة التي فقدت اتزانها إلى مزيد من أعمال الشدة والعنف. أجل، هناك خريف حزين في كل مكان، والقيم الإنسانية سقطت تحت الأقدام. فلا حرمة للفرد، ولا حرمة للقيم الإنسانية. وإذا وُجد هناك بضعة أفراد يتصرفون ببعض الاحترام، فمن أجل الحصول على أجرة وعلى مقابل لهذا الاحترام. والجماهير أصبحت تُعد في كل مكان كتلاً لا قيمة لها، وحالها تفتت الأكباد، في

وقت تبذل لها الوعود بالحصول على عمل وعلى لقمة عيش في أوقات الانتخابات فقط. ولكن لم يعد أحد يصدق هذه الوعود لعدم تحققها.. فالعلم لا صاحب له... والمعرفة والعرفان وراء جبل قاف... الفن مجرد حارس للأيدولوجيات... بيوت العلم استسلمت للتقليد... عشق الحقيقة وحب العلم والشوق للبحث أمور لا تستحق الاهتمام والالتفات إليها... أما بعض الجهود المبذولة فربما لا تتعدى نطاق الهواية... مؤسساتنا الحيوية التي أودعنا فيها حاضرننا ومستقبلنا ميتة ولا حياة فيها... إن استمعت

إلى الدعايات والادعاءات حسبت أننا نكفي لعوالم عدة، بينما تشير الحقائق صارخة بأننا لا نكفي لمدينة صغيرة. ومن الواضح لكل ذي عينين أن قيمنا الأخلاقية، والشعور بالمسؤولية، والتزامنا بالحق وبالعدل هي دون المستوى العالمي بكثير، فلا تجد عند الكثيرين منا أي حياء أو خجل أو أي احترام للحق ولا أي توقير للفكر... لقد زال منذ زمان بعيد الخشية من الله، وحس الفضيلة... أما الحياء من الناس فنحن الآن نسعى للتخلص من هذا الشعور المزعج(!). لقد تحولنا إلى أكوام بشرية لا قلب لها ولا روح، وانعكس هذا على وجوهنا، فلم يبق عند معظمنا إحساس بالرحمة أو الشفقة، ولا شعورٌ بالاحترام والتوقير. أما عدد الذين يعدون الدين والديانة مؤسسة عتيقة وبالية فلا

يستهان بهم... المشاعر الدينية خربة في كل مكان، والتدين مُهان... اللامبالاة منتشرة وكذلك السقوط الأخلاقي... الخيانات متداخلة بعضها مع البعض الآخر في كل جانب، والصرخات والتأوهات تُسمع من هنا وهناك... في هذه الأرواح التي فقدت مشاعرها الإنسانية ترى جموداً في الأحاسيس والعواطف وشللاً... أو معاذير من أمثال "هل أنا المكلف بإنقاذ العالم؟" القلوب الحساسة أصبحت أسيرة انفعالاتها وفقدت توازنها... أما عدد الانتهازيين الذين يقولون: "هذا هو يومنا... وهذا هو عهدنا وزماننا" فليس معروفاً... والله تعالى وحده هو الذي يعلم عدد الذين جعلوا الوصول إلى الثروة عن أي طريق هدف حياتهم. في مقابل هذا نرى أن من يفكر ويحس ولو قليلاً يتجرع الآلام من أيدي أصحاب القوة الغاشمة، ونرى أن مصير من يخدم هذه الأمة هو الانسحاق، ومصير من يُخلص لهذه الأمة هو الوقوع في المصايد الشيطانية المنصوبة له في كل منعطف... صحيح أن الساكيتين الآن والصامتين لا يصيبنهم شيء، ولا يقال لهم شيء، ولكن لا أحد يعرف ماذا سيأتي به الغد. هناك شردمة هامشية تثير على الدوام ضجة وجلبة في كل فرصة سانحة لها ضد الإيمان وضد الإسلام. وهي بدرجة عدائتها

اليأس

عفريت يقطع

عليك الطريق، وفكرة

العجز وانعدام الخيلة مرض قاتل

للروح، والذين برزوا في تاريخنا المجيد

برزوا لأنهم ساروا بكل عزم وإيمان. أما

الذين تركوا أنفسهم لمشاعر العجز

والقنوط فلم يقطعوا أرضاً،

بل ضاعوا في

الطريق.

إلى كربلاء والأعداء إلى "شمر"^(١) والشهور إلى شهر محرم. وقد تتابع المؤامرات الواحدة منها تلو الأخرى، وتحدث حرائق كبيرة فتحرق إلى جانب بيوتنا ومساكننا آملنا أيضاً وخططنا وتحولها إلى رماد. وقد يتخلى عنا الجميع... أصدقاء كانوا أم أعداء، ونظل وحيدين ومعزولين، بل قد لا يكتفون بهذا، إذ قد نطعن من الخلف من قبل أشخاص لا نتوقع منهم هذه الخيانة. أجل، نحن نعيش في هذه الظروف التي يطعن فيها الأعداء ويحشد فيها الأصدقاء ويتخلون عنا تماماً، فعلينا ألا نستسلم أبداً، ولا ننحني، بل نبقى صامدين وواقفين على أرجلنا مستندين في ذلك إلى إيماننا وآملنا بل مسرعين نظوي المسافات مثل جواد أصيل يغدو حتى النفس الأخير.

فلو وصلت المصائب والفواجع إلى أضعاف ما هي عليه

للدين ولالإيمان تستهين بالرأي الحر والديمقراطية الحقبة وحقوق الإنسان، وتعلن الحرب على كل من يخالفها في الرأي وفي الفكر، وتدين كل من لا يشاركها وجهة نظرها، وتمسّ في عرضه وشرفه بل ربما توسلت إلى التصفية الجسدية لمن لا تستطيع الصمود أمام فكره وحججه، وهناك من بينهم بعض النماذج والأفراد الذين لا يملكون ذرة من شرف الفكر وعفة الروح. ولا يتردد أمثال هؤلاء القيام اليوم بتكذيب ما قالوه في الأمس، وأن يذمّوا غداً ويخسّفوا به إلى سابع أرض من يصفّق له ويهتف بحياته اليوم. وإذا كانت هناك صفة لصيقة هؤلاء من ذوي الوجهين فهي أنهم يطفون على السطح دائماً، ويتلذذون بلدغ الآخرين كالثعابين. أما التعصب الكفري الموجود لدى بعض هؤلاء فحدث عنه ولا حرج، فهم لا يؤمنون لا بالله تعالى ولا برسوله ﷺ... قد عميت بصائرهم



حالياً، ولو أحاط بنا الأثين والنحيب من كل جانب، ولو بلغ الصراخ عنان السماء... حتى لو تحولت المآسي الحالية إلى حمم بركانية متدفقة نحو القلوب... ولو تلوت الأمة بأجمعها من الألم ومن اليأس، ورسمت السيوف أقواساً فوق الرؤوس المفكرة، ولو سُحقت الأدمغة بالمطارق، وانفرد الظالمون وبقوا في الميدان وساد ظلمهم كل مكان، ولو غطى اليأس الأسود أفضل القلوب وأطهرها، ولو اتمارت البيوت وتقوضت العوائل وانهدمت... لو غرب القمر وانطفأت الشمس، ولو انغمرت القلوب مع الأبصار في ظلام دامس... ولو طغت القوة وتجبرت... لو انسحق الحق تحت أقدام وعجلات القوة العاشمة... لو كشرت القوى الظالمية عن أنيابها، وانزوى الضعيف في صمت... لو خارت قوى أصحاب القلوب العاجزة عن المقاومة واحداً إثر آخر... لو سقط كل أصحاب القلوب...

فهم لا يرون، وصمّت آذانهم فهم لا يسمعون، لا يملكون روحاً ولا قلباً، ولا عقلاً متديراً، ولا يحملون وقاراً لا لله ولا لرسوله ﷺ. جهالتهم جهالة مركبة، فهم لا يعلمون، ولا يعلمون أنهم لا يعلمون، ويحسبون أنهم يعلمون.

والخلاصة أننا خائضون اليوم حتى الركب في جميع السلبات التي كنا نتمنى عدم وجودها، والأنكى من هذا هو عدم وجود أي خبر أو علامة مما كنا نأمل فيه كأمة منذ سنوات عديدة. وعندما يكون هذا هو المنظر العام فمن الصعب الحديث عن الأمل وعن العزيمة. ولكننا كأمة يجب أن نتجاوز هذه الصعاب، إذ لا خيار آخر أمامنا. لأن المصائب التي نواجهها حالياً قد تظهر أمامنا في المستقبل وقد تتضاعف، وعندما ينقلب البلد من أقصاه إلى أقصاه إلى ما يشبه مقبرة جماعية، وقد يُلف عزم الأمة وأملها مثل كفن على رأسها، وتنقلب الأنهار إلى "نهران" والسهول



لو حدث كل هذا لما كان علينا إلا أن نستمر في موقفنا ونعطيه حقه من الثبات دون أن نغير سلوكنا قيد شعرة... نقف في موضعنا لنكون موضع أمل ومنبع وقوة يلجأ إليها الجميع، ونحاول من جديد إشعال جميع المشاعل الخائية.

إن كان إيماننا بالله تاماً فلا بد أن يكون الأمل والعزم شعارنا، وتقديم الخدمة للأمة مهمتنا. يجب أن يكون توقيرونا للحق تعالى وأن نذير أنفسنا لإسعاد الآخرين بدرجة أن نفضل أن نُطعم قبل أن نطعم، وأن نكسو قبل أن نُكسى فيسعد من يرى أسلوب حياتنا الموقوفة للآخرين، وأمانتنا في أداء الأمانة. يجب أن نعيش طاهرين ونزيهين إلى درجة أن أي حرام أو أي أمر غير مشروع لا يستطيع أن يلوث أحلامنا فضلاً عن

حياتنا. ومن يدري كم فقدنا وكم خسرننا،

وكم هبطنا من علونا جراء بعض هذه التلوثات. فلا يفلح قط من لا يوفي حق

موقعه وينحرف عنه. هذا علماً

أننا نعد حب الحياة أو المنافع

الشخصية انتحاراً فضلاً عن

الأهواء الدنيوية، بل علينا ألا

نجعل حتى الجنة غاية عبوديتنا،

لأن علينا أن نربط قلوبنا بالهبات

والأفضال الإلهية والسعي لنيل رضاه،

واضعين سداً منيعاً أمام رغباتنا وأهوائنا

الشخصية. نعطي -دون انتظار أي مقابل-

ولا نأخذ، بل نحسن على الدوام. وعندما ننطلق نحو

"المحبيب" ونسلك سبيل السعداء لا نخطر أنفسنا على بالنا.

لقد اعتاد الذين نذروا أنفسهم لسلوك طريق السعداء -

في الماضي والحاضر- ألا يطأهم اليأس والقنوط وألا يهتزوا

ولا تأخذهم الحدة والغضب حتى وإن تعرضوا من كل جانب

لمشاعر العداة والكره، وإن قاسوا من جحود الأصدقاء وشماتة

الأعداء، وإن أصبحوا هدفاً لهجوم أصحاب الأرواح المملوءة

حقداً ونفورا... فهم لا يقابلون هذا بشعور مقابل من العداة

والكره، بل يدفعون السيئة بالحسنة وبالكلمة الطيبة وسلوك

الإحسان وبالقول اللين فيقومون بذلك بإصلاح جميع السلبات،

ويقابلون الأفكار الهدامة بمحاملات البناء... ولو انقلب كل شيء

في البلد -لا سمح الله- في يوم من الأيام رأساً على عقب، وانغمرت الجماهير في الظلام، وتقطعت الطرق وتهدمت الجسور فلن يضطرب هؤلاء ولن يهتزوا، لأنهم يرون أن هذا الاضطراب والاهتزاز منهم يعد عدم توقيرو لعقيدتهم وإرادتهم. فبدلاً من إظهار دلائل ومناظر الموت والخراب في جو من اليأس والقنوط يقومون بتحفيز مشاعر الحياة عند الآخرين وتنشيطها وإثارتها، ويهتفون بكل من يستطيع السير: أن الطريق مفتوح.

إنني أعتقد بأن يد العناية ستمتد حتماً إلى أبطال العزم والعزيمة هؤلاء، إن لم يكن اليوم فغداً... وأن العواصف الهوجاء التي تقطع عليهم الطريق ستهدأ وتسكن، وستذوب الثلوج وتزول، وستتحول السهول والوديان القاحلة حولهم منذ قرون إلى جنات نضرة، وسيستسم لهم الحظ.

إن اليأس عفريت يقطع عليك الطريق،

وفكرة العجز وانعدام الحيلة مرض قاتل

للروح، والذين برزوا في تاريخنا

المجيد برزوا لأنهم ساروا بكل

عزم وإيمان. أما الذين تركوا

أنفسهم لمشاعر العجز والقنوط

فلم يقطعوا أرضاً، ولا ساروا

مسافة، بل ضاعوا في الطريق. فمن

ماتت عندهم المشاعر والأحاسيس،

ومن فقدوا قابلية الحركة لن يقطعوا طريقاً،

والنائمون لا يستطيعون الوصول إلى الهدف.

أما الذين فقدوا عزمهم وإرادتهم فلن يستطيعوا البقاء

قطعا على أرجلهم مدة طويلة.

والآن إن كنا نفكر في غدنا، ونأمل في الوصول إلى المستقبل

ونحن ننبض بالحركة والحياة، فعلينا ألا ننسى أبداً بأن الطرق

تُقطع بالسير، وأن الذرى تبلغ بالعزم والإرادة والتخطيط. إن

الذرى التي تبدو مستحيلة الوصول، قد تم الوصول إليها مراراً.

وقبّلت القمم الشاهقة أقدام العزم والإرادة وأنارت في أصحابها

عزماً جديداً.

والحقيقة أن من عرف طريقه في أي عهد من العهود وعرف

الهدف الذي يتوجه إليه، وكان واثقاً من القوة التي يستند إليها

استطاع بفضل هذا الشعور وبفضل هذه الديناميكية التي يشعر

إن

كان إيماننا بالله

تاماً، فلا بد أن يكون الأمل

والعزم شعارنا وتقديم الخدمة

للأمة مهمتنا. يجب أن يكون توقيرونا

للحق تعالى وأن نذير أنفسنا لإسعاد الآخرين

وأن نعيش طاهرين ونزيهين إلى درجة أن

أي حرام أو أمر غير مشروع لا

يقدر أن يلوث أحلامنا فضلاً

عن حياتنا.





الحمامة الجوّالة

رفرفي وحلّقي،
وعُشّك فاهجري،
والأجواء عطري،
والجمال انشري،
وآثار جناحيك على المسالك ارسني،
وبوجدك احترقي واشتعلي،
والدروب نورّي،
ونفسك لا تحمدي،
وتضحيتك إليك لا تنسبي،
ومنفعتك أبداً لا تطلبي...

بها في أعماقه أن يرقى إلى هذه الذرى ويتجاوزها فيصل إلى الشاهقة مرات ومرات، وتصغر الأرض تحت أقدامهم، وتفتح السماوات صدرها لعرفانهم، وتقف لهم المسافات تحيةً وإكباراً وتقف لعزمهم وجهودهم احتراماً، وتتحوّل العوائق والموانع إلى جسور تنقلهم إلى أهدافهم. أجل، إن الظلام يندحر دائماً أمام هؤلاء الشجعان، وتنقلب المصائب إلى شآبيب رحمة وتتحول المشقات إلى طرق نجاة، والضوابط إلى حوافز انطلاق.

لو أبادوا حاضر مثل هذا الشخص نراه ييمم وجهه نحو المستقبل ويستمر في طريقه المتوجه إلى الغد. ولو هدموا مستقبله أيضاً لما تردد في نخس جواده نحو مستقبل أبعد، أي لا يملكون حيلة حيال أمثاله، ولم يستطيعوا هذا حتى الآن، لأنه حتى لو عاش هزائم، أو سقط على الأرض، فإنه بفضل عزمه وإيمانه وأمله يستمر في وضع خطط جديدة للفوز وللنجاح ويجد فيها السلوى والعزاء. كما أنه عندما يجابه موجات من الحقد والعداء، وعندما تدلهم أمامه الخطوب، وتكاثف الظلمات بعضها فوق بعض لا يسقط في وديان اليأس والقنوط، ولا يضطرب أو تهمز منه شعرة، لأنه لا يمثل الأمس فقط ولا اليوم ولا الغد، بل هو في موقع يسري كلامه إلى الأزمنة جميعاً فهو "صاحب الوقت" و"ابن الزمان". يعرف إضافة إلى لغة عصره روح الدين وأسرار القرآن.. كل من يراه ويتلمس شخصيته يتذكر عصر النبوة والخلفاء الراشدين، وهو بمشاعره وأفكاره وبعفته ونزاهته وبوفاته وبصدقه وخلقه المتين يبدو كأنه صرح من الجلمود أو الجرانيت، إن تهم كل من حوله وانهار، فلا يتفتت ولا يسقط منه مقدار قلامة ظفر واحدة. نحن نأمل -بفضل هذه الأخلاق العالية والقوية والراسخة- أن تجد الصدور التي تشتكي الغربة والمجران الشفاء والسلوان إن لم يكن اليوم فغداً، وأن تستقيم أصلاب أولئك الذين عاشوا منحنى الظهور منذ عصور ظهورهم، ويهتفوا مؤكدين وجودهم، وأن تحيا الأرواح التي غشيها الظلام وتقوم بتبديد الظلمات التي تحيط بهم وتحاصرهم، وأن يصرف الجميع جهوداً استثنائية ويقوموا -تحت إرشاد المعاني المركوزة في جذورهم وأعماق نفوسهم- بتجاوز جميع العقبات فيتحدون مع ذواتهم وماهيتهم ويصلون إلى ذروة الحظ والسعادة. ■

(*) الترجمة عن التركية: أورهان محمد علي.

الهوامش

(١) شير بن ذي الجوشن: قاتل سيدنا الحسين بن علي عليه السلام. (المترجم)



العلم والإيمان متعة العقل والروح

العطري بن عزوز*

الإيمان الراسخ الذي لا يتزلزل، وليكون من أهل العقول الذين أبصروا بالعلم حقائق الإيمان بالله ورسوله، وبذلك يتذوق ويتمتع حلاوة العلم والإيمان؟!

العلم وصناعة الإنسان المؤمن؟

لقد جعل الله تعالى الطريق للإيمان به ورسوله يأتي عن طريق العلم وهو الطريق الموثوق للوصول إلى الغاية المقصودة، قال الحق ﷻ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (حمد: ١٩). إذن فالإيمان هو المنطلق الصحيح لتصرف الإنسان في هذه الحياة، المحقق للسعادة في الدنيا والآخرة. وكل تصرف ينطلق من غير الإيمان لا يثمر إلا الشقاء والخسران. ولهذا علق الله الفلاح والفوز به، وعلق الخسران والشقاء بفقدته، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾

إن الحق ﷻ قد منح الإنسان القدرة على العلم والمعرفة والتمييز بين الأشياء، فخلق له الأدوات التي يتمكن بها من تحصيل العلم واكتسابه. وبعد أن قدر الله للإنسان أن يكون عاقلاً مميّزاً عالماً مختاراً ومنحه أدوات العلم والتمييز، أمره أن يسلك سبيل العلم وأن ينتفع بأدوات العلم لديه، وأن لا يتبع أمراً لا علم له به، وأنه سيكون مسؤولاً عن الانحراف. إذ لا عذر لإنسان بعد ذلك إذا سلك طريق الضلال، قال تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۖ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ (القيامة: ١٤-١٥). وإذا كان الحق ﷻ هو الذي منحنا السمع والبصر والعقل، أفلا يجدر بهذا الإنسان أن يستخدم هذه الأدوات التي خلقها له ربه في معرفة خالقه ﷻ ورسوله ﷺ قبل أي معرفة أخرى، فيأخذ عقيدته بعلم ويقين حتى يكون من أهل

إ

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿١﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٢﴾ (العصر: ١-٣).

فالعالم من أجل نعم الله تعالى على الإنسان، حتى أصبح جزء من حياتنا اليومية نحتاجه في أعمالنا، ولا حديث في هذه الأيام إلا على التطورات التكنولوجية. وهنا يطرح السؤال، إلى أي مدى يمكن أن نقدر العلم ونحترمه؟ هل هو مطلوب لذاته؟ وهل هو وسيلة أم غاية؟ إن الناظر إلى واقع الحال سواء في البلاد الغربية أو العربية يجد عجباً؛ الناس يكاد أن يؤمنوا العلم، فتنة بما وصل إليه من تطورات مذهلة، فإن قلت لأحدهم: "يقول الدين كذا وكذا"، يقاطعك قائلاً: "دعك من هذا، إن هذا أمر غيبي". وتجد كلاماً كثيراً.. أما إذا قلت: "قال العلم كذا وكذا"، فيسكت متقبلاً كل الكلام الذي تقوله ويؤمن به إيماناً راسخاً لا يتزعزع. فالدين أو الإيمان في نظره غيبي وتختلف ورجعي، والعلم عنده تطور وحضارة ورقّي. إذن فما الذي حدث؟ إن هذه الفكرة وليدة سلسلة أحداث تاريخية ترجع إلى القرون الوسطى، حيث كانت الكنيسة تحارب العلم، وحدث صراع كبير بين رجال الكنيسة ورجال العلم، وانتصر رجال العلم وكفروا بكل الغيبيات، وكان موقفهم هو معاداة الإيمان، كما انطلقت النهضة العلمية المعاصرة من منطلق مادي صرف معاد لكل معاني الروح، لا يقبل غير المادي. ونحن نعلم أن الغيبيات في الكون الذي نحن فيه، أكثر من الماديات، ولذلك انغمست هذه الحضارة في الماديات، مع العلم أن هؤلاء الغربيين استخدموا المنهج القرآني - وهو المنهج العلمي التجريبي الذي أسسه علماء الإسلام - ولكنهم سخروه في المادة فقط، فبنوا الإنسان المادي، وغفلوا عن الجانب المهم فيه وهو الروح، ونتج عن ذلك الشقاء والفرار الروحي وسقوط القيم وتحلل الأسر، وزيادة الأسلحة المدمرة التي تهدد الإنسانية بأكملها. وكل هذا من سمات هذا العصر الذي سمي بعصر التقدم العلمي. وهكذا أصبح العلم أداة في يد الغربيين لزعة الإيمان عن طريق إقناع الشباب بأن العلم وحده كاف للتخضر والتقدم والمدنية ومن ثم الوصول إلى السعادة بعيداً عن قيود الدين. إذن فما مدى صحة هذه الرؤية، فهل صحيح أن العلم وحده كاف لسعادة الإنسان؟

محدودية العقل

ففي قصة موسى عليه السلام دلالة واضحة عن محدودية العقل، حيث

برهن القرآن للعقلين بالتجربة الحسية، ضعف العقل. فقد طلب موسى عليه السلام الرؤية، ولما تجلى الله للجبل اهتز وكاد أن يقتلع من جذوره، وأغمي على عقل موسى لأنه لم يستوعب الرؤية. والتعليل واضح وهو أن العقل عاجز عن الوصول إلى كثير من الحقائق، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ نُنْظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٣). وهكذا يبقى العقل دائماً عاجزاً عن إدراك حقيقة الأشياء ما لم يستعن بالوحي. فالعلاقة بين العقل والوحي تأتي من خلال التعرف على كيفية تعامل العقل مع الوحي، أي كيف تتعاون مصادر العلم مع بعضها للوصول إلى الحقيقة. وفي بيان هذه العلاقة يقول الدكتور النجار: "إن العقل لكي يقوم بدوره في تفهم الوحي لابد أن يعتمد أسساً تهديده إلى الفهم، وهي أسس راجعة في أغلبها إلى خصائص الوحي ذاته أو إلى خصائص العقل. وانخرام أحد الأسس يؤدي إلى خلل في الفهم، وبالتالي إلى الانحراف في فهم المراد الإلهي".^(١)

والقرآن لم يجهل ليعلمنا العلوم، بل جاء ليحث العقول على تعلم العلوم والنظر في الكون والإنسان لتتكشف الأسرار الغامضة، على أن يتعاون الوحي مع العقل في استقراء الحقائق من الكتابين. فالقرآن كلام الله وكتابه المسطور، والكون خلق الله وكتابه المنظور، والحقيقة مبثوثة فيهما.

الإدمان على المعرفة والعلم

بقيت مسألة مهمة وهي لماذا بعض الناس دون غيرهم، لديهم هوس بالعلم والإيمان وشغف بالتعمق فيهما؟ في حين نجد الأغلب ينفرون منهما ويركنون إلى حياة الخمول والجهل. طبعاً الجواب مستمد من الملاحظة واستقراء الحال، وهو أن من تعود على البحث والقراءة والتعلم وحل المسائل والتفكير في مخلوقات الله تعالى المبثوثة في هذا الكون، يجد في نفسه متعة وراحة يعجز اللسان عن التعبير عنها، لأنه أمسى مدمناً على المعرفة، يحس بحلاوة الإيمان ويتمتع بالبحث العلمي. علماء الأعصاب قدموا لنا تفسيراً منطقياً وسهلاً لتأكيد أن ثمة متعة حقيقية تحتاح الدماغ، ويحس بها الإنسان عندما يلتقط المعلومة أو يفهم شيئاً جديداً. وأيضاً قدموا لنا الآلية التي يتم بها نشوء المتعة في الدماغ، وشبهوا

تشبك وتعلق عليها مواد اللذة هذه، لتقوم حينها ببعث الشعور باللذة في الخلايا الدماغية. وهذه المستقبلات تكثر في الخلايا الدماغية لمنطقة "حزمة أعصاب الطريق البصري الجوفي"، وهي جزء من الدماغ معني بملاحظة وتحليل الصور وترجمة معانيها للذهن وفق آليات غاية في التعقيد. والمستقبلات هذه مجمعة ومركزة بشدة في خلايا الحزمة العصبية في المناطق المعنية بفهم وإدراك معاني الصور المرسومة أو المكتوبة. ولا توجد في المناطق المعنية باستقبال الدماغ للصور المرئية في أول الأمر، أي إنها توجد في مناطق تعمل في مراحل متقدمة من عملية التحليل الذهني لمعاني الصور المشاهدة وتحديد مدلولاتها، فلا يُثيرها إلا ما يستدعي التحليل والفهم وليس مجرد الاستقبال الأولي المبدئي. ولذا فالباحثون يقولون: "كلما كثر النشاط العصبي في أثناء الجهد لتحليل والفهم في المنطقة الغنية بمستقبلات الأفيون، كان الشعور باللذة أعظم عند نجاحها في الوصول إلى الفهم وحل الغموض". وفي سلسلة من صور متفرقة لمناطق متنوعة من الدماغ

بالرنين المغنطيسي لمتطوعين عُرضت عليهم أنواع عدة من الصور، فوجد فريق البروفسور "بيدرمان" أنهم فضلوا بشدة الصور التي أثارهم بشكل ملفت لتحليلها وفهمها، وزادت من نشاط الإفراز في المناطق الغنية بمستقبلات الأفيون، كما لاحظ البروفسور "بيدرمان" أن تكرار عرض الصور الجذابة للشخص في البداية يؤدي إلى تدن تدريجي في إثارة مناطق إفراز المواد الشبيهة بالأفيون مع تكرار العرض، وبالتالي قلة إفراز المواد الكيميائية الباعثة على الشعور باللذة من فهمها.

إذن، فقراءة الكتب والإقبال على العلم والمعرفة تعني مزيدا من الإيمان، ومن ثم تتأكد متعة العقل والروح حيث يشعر الإنسان بحلاوة الإيمان، وهذا هو السر في مقولة المغني الإنجليزي الشهير الذي أسلم وسمي بـ "يوسف إسلام" حينما سئل عن شعوره بعد إسلامه فقال: "يعجز اللسان عن وصف السعادة التي تغمرني والتي طالما بحثت عنها في جميع الأديان". ■

(٤) باحث في الدراسات الإسلامية والإعجاز / الجزائر.

الهوامش

(١) خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، لعبد المجيد النجار، ص: ٩٦.

الأمر بالإدمان على الأفيون. ولذا فإن مدمني الأفيون لا يحتاجون هذه المادة من الدماغ، ويغدون أشخاصاً كسولين وخاملين علمياً. أما لتعليل الإدمان على المعرفة فقد وصف العلماء الإدمان بلغة بسيطة، وهو الاعتماد على شيء معين كمصدر للحصول على اللذة أي كان نوعها. ولا تنشأ الحالة إلا لدى من تكرر استخدامه لهذا المصدر، وتعودت نفسه عليه وأحس بالفرق حين حرمانه منه، وهو ما ينطبق على علاقة الدماغ بالمعرفة.

الباحثون من جامعة جنوبي كاليفورنيا يقولون: "إن الدماغ يأخذ مكافأة ذاتية عند التقاطه معلومة جديدة أو حله لمسألة ذهنية صعبة. والمكافأة هذه عبارة عن جرعة من مادة الأفيون تعمل على البدء بسلسلة من التفاعلات الكيميائية السريعة، وتنتج في نهاية الأمر دفقة من مادة طبيعية شبيهة في مفعولها على الدماغ بالأفيون"، وذلك على حد قول بروفيسور العلوم العصبية بجامعة جنوبي كاليفورنيا، الدكتور "إيرفنج بيدرمان" الذي وضع فرضيته الجديدة في نتائج البحث المنشور في العدد الأخير من مجلة: "العلماء الأمريكيون".

ويوضح قائلاً: "حينما يحاول أحدنا فهم نظرية أو معلومة صعبة، فالأمر غالباً شاق وليس مجرد مرح، لكن بمجرد فهمها والتقاط تلك المعلومة بشكل سليم، ينتاب الإنسان شعور عارم بالرضا والسعادة". لذا فحاجة دماغ الواحد منا إلى ما يعيد الهدوء والسكينة إليه أو ما نصفه بالعامية "فلان يحتاج أن يعدل دماغه" هي الدافع للناس كي يرفعوا إلى أقصى حد من قدرات الاستيعاب الذهني لديهم للمعلومات والمعرفة. ويعلق البروفسور بيدرمان قائلاً: "مزاجنا الذهني مفتون بتجميع المعرفة في كل ثانية كما هو حال تجار القطع الأثرية في الحرص على اقتناء القديم والقيم منها".

الإدمان العلمي والإدراك الذكائي

وفرضية "بيدرمان" حول الإدمان المعرفي والعلمي لها قيمة تطويرية قوية، ومرتبطة جداً بمستوى الإدراك الذكائي، ويحتاج الأمر إلى عناصر ضاغطة بشكل قوي، كالجوع مثلاً، كي يُؤجل الدماغ رغبته في البحث عن المعرفة. وعلى حد قوله فإن نفس الأمر ينطبق على تقدير الجمال الفني البصري والمتعة في التفاعل معه.

أساس الفرضية وفرضية البروفسور "بيدرمان" مستوحاة من نتائج بحث تم إهماله منذ ربع قرن حول مستقبلات المواد الأفيونية الطبيعية في خلايا الدماغ، أي نقاط جدار الخلية الدماغية التي

نفسى نسيْتُ.. وفانيًا بالمعشوق فنيْتُ.. رضاك أريد.. وذوباناً في حبك
أذوب.. غيرك لا أبتغي.. وسواك في العالمين لا أنشد.. يا بؤس
الإنسانية إذا خيالها به لا يقتن.. وشوقها إليه لا يزجى..

غائية الوجود في الأدب الإسلامي

أ.د. عماد الدين خليل*

ت

الطليعية ودكتاتورية العقل

تنطوي "الطليعية" على رؤية قائمة تقوم على الاعتقاد بفوضوية الكون وعبث الحياة، ولا جدوى الكدح البشري. ومنذ البدء نجد أنفسنا بإزاء موقف تصوّري نقیض بالكلية لموقف "الإسلامية" القائم على الترابط الكوني، وغائية الحياة، وجدوى الكدح البشري، وعدالة المصير.

والكتاب العبثيون يشتركون جميعاً في الإلحاح على الفوضى التي تلف أقطار الكون الأربعة.. على الجنون الذي يضمّ العالم بين جوانحه.. على اللامعقولة التي تربط بين الإنسان والكون.

إن هؤلاء الكتاب قد غدوا، في النصف الثاني من القرن الماضي، مدرسة متميزة تقوم أول ما تقوم على القواعد التي يتفق عليها هؤلاء الكتاب جميعاً وهي الفوضى والعبث واللامعقول، تلك التي وضع "ألبيز كامبي" حجرها الأساس.

يذكر "ريتشارد كو" في كتابه عن "يونسكو" كيف "أن كل النزعات التي كبحتها دكتاتورية العقل خلال قرنين من الزمان اندفعت على السطح، وشهد النصف الأول من قرننا العشرين، عدة حركات ثورية كالتكعيبية والمستقبلية والسريرية والتعبيرية والدادائية والوجودية، وكلها حركات تسعى بطرائقها

تحدثنا في حلقتين سابقتين^(١) عن انعكاس المضمون الفكري للأدب الإسلامي على بنيته الفنية فيما يجعل من "الإسلامية" مذهباً في الأدب يتميز عن المذاهب الأخرى، ليس في مضامينه حسب، وإنما في تكوينه الفني، ويسقط بالتالي مقولة البعض بأن الأدب الإسلامي أدب معياري، وهي الإشكالية التي ناقشناها في كتاب "الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي"^(٢) في موضوع "الأدب الإسلامي بين المعيار والمنهج".

في الحلقتين السابقتين تبين كم أن الرؤية الإسلامية لقضية القدر تقدّم فناً مسرحياً مغايراً في شكله ومضمونه للتراجيديا اليونانية، وكم أن الرؤية الإسلامية "للواقع" بأكثر مفاهيمه عمقاً واتساعاً، تشكل أدباً يتميز في بنيته الفنية عن سائر الواقعيات الأخرى. وفي هذه الحلقة سنقف وبالإيجاز المطلوب، عند مسألة ثالثة وهي التصوّر الإسلامي للكون، ولغائية الوجود، وانعكاسها على الخصائص الفنية للأدب الإسلامي؛ تماماً كما أفرزت هناك - في الساحة الغربية - مذهبها "الطليعي" الذي يسمى صدقاً "بالعبثي" أو "اللامعقول".





الخارجي، أو قل: إن العالم الصغير هو صورة مصغرة مثالية للعالم الكبير. ففوضى الأول وتشتهت تبدى في الثاني على نطاق واسع وليس هناك خط واضح يفصل بين الاثنين".^(٤)

ويبين "يونسكو" -بعبارة واضحة- ثقافت الشخصية الإنسانية، لأنها ليست -بعد أن تكشف عبث العالم- سوى قطعة من ملايين القطع التي يعث بها الكون: "إن كل شخصياتي على خصام مع الدنيا.. لقد غمرهم القلق التاريخي الذي يسود العالم وتورطوا فيه". "إنه عالم رهيب -يقول يونسكو- إلا أنه عالم لا يمكن أن يؤخذ مأخذ الجد، فهو يوشك لفرط سخفه أن يكون مضحكاً". ومن ثم فإن رؤية الطليعيين هذه للعبث لم تتح لهم أن يطمئنوا للشكل المسرحي العقلي "الأرسطائي" أداة للتعبير. فالمضمون في العمل الفني هو الذي يحدد الشكل، لذا تمرد يونسكو ورفاقه على الواقعية المسرحية ورفضوا الواقع المنقوص الذي تصدر عنه وتصوره وتفرضه اعتسافاً، وانصرفوا إلى عرض ما كان يتراءى لحسهم الفني ووعيهم الإنساني كواقع شامل، بكل ما فيه من مأساة ومن مهزلة، وكل ما فيه من عبث وخواء وتناقض.^(٥)

الخاصة إلى إلقاء الضوء على موقف الروح الإنساني في كون غاب عنه المنطق. وعندما يختفي المنطق تختفي أيضاً مبررات الوجود. وهكذا نرى أن "يونسكو" -مثل كامبي وسارتر- يرى في وجودنا حقيقة لا هي بالمنطقية ولا هي بالمبررة، إنها حقيقة، ولكنها حقيقة عبثية، فالوجود الذي لا يبرره منطق عبث".^(٣)

ويعمضي "ريتشارد كو" يبين كيف سعى الطليعيون إلى إلغاء النظرة القديمة "الكلاسيكية" إلى قواعد الكون الأساسية: الزمان والمكان ووحدانية الشخصية، وكيف أنهم كتبوا "دراما الساعات المكسورة". بمعنى أن أبطالهم يعيشون في عالم توقفت ساعته، وحين يفقد الإنسان الشعور بالزمن، تصبح "السن" كلمة لا معنى لها، وما دما قد محونا الزمن فقد محونا "تراكم التجارب" التي يأتي بها الزمن، وعلى ذلك فلا معنى للقول بأن الشيخوخة مثلاً تأتي بالحكمة. وقوانين المكان -من ناحية أخرى- لا معنى لها، فهي تعسفية، وغياب التابع المنطقي يستلزم غياب وحدة الشخصية، فليست الشخصية سلسلة متصلة من الصفات كما يزعم الكلاسيكيون، وإنما هي حالات دائبة التغير يتبع بعضها بعضاً، وما يقوله "أ" يمكن ببساطة أن يقوله "ب" دون أن ينجم عن ذلك ضرر كبير. إن "الأنا" ما هي إلا انعكاس للعالم



الإحساس بالزوال في عالم بلا فضاء

والطليعيون يخنقهم "إحساس بالزوال، في عالم بلا فضاء من الضوء واللون.. إحساس يبدو الوجود من خلاله عديم الجدوى، مستحيلاً، بلا مغزى.. وتلك هي ذروة الوعي بالعبث، حيث يتكشف العالم كخيال موهوم، بعيد عن الاحتمال والتصديق، ويبدو الواقع واللغة فيه كما لو كانا يتفككان ويتهاويان قطعاً متناثرة، ويفرغان من كل معنى، بحيث يبدو في النهاية أنه ما دام كل شيء قد تجرد من الأهمية، فما الذي يسع المرء أن يفعله إلا أن يضحك من كل شيء؟" (٦)

وللطليعيين موقف من الموت.. كلنا نعرف كيف أن "كامي" اعتبره السبب الرئيسي في تجريد الحياة من المعنى: "ما دمنا سنموت فليس لأي شيء معنى"، وارتكن إليه في القول بعثية العالم، إذ لو كان العالم مجدياً "فلماذا يموت الناس وهم ليسوا سعداء؟".

إن "يونسكو" رائد اللامعقول، يقف -كبكية رفاقه- أمام الموت يتأمله، وتشيع هذه الوقفة في فنّه، على الأخص في "قاتل بلا أحر" و"الملك يحتضر"، كما تشيع في "الأيام السعيدة" لصموئيل بكت "إن الموت يثير الرعب لا لأنه واقعة فظيعة في حد ذاتها، بل لأنه يجعل كل الحياة التي سبقته عبثاً وسخفاً، فضلاً عن أنه في حد ذاته لا معنى له.. يقول يونسكو: "لقد خلقنا كي نكون خالدين ومع ذلك نموت. الأمر خفيف ولا يمكن أن يحمل حمل الجد". (٧)

العبيون واللامعقولة بين الإنسان والكون

ما الذي يستطيعه الفنان إزاء عالم يراه "كابوساً لا يطاق، وشبه حلم خفيف.. عالم يبدو أنه في قبضة حمى رهيبة.. ألا نكون محقين إذا ما أحسسنا أن هذا العالم ليس لنا، إنه ليس عالمنا الحق؟ ما

الذي يستطيعه الفنان إزاء عالم كهذا إلا أن يمزق قناع اللاواقع من حوله، قناع المظاهر الذي يصطنع للعالم منطقاً، ويدعي له عقلاً، بالرغم من كل ما يطالع العالم الإنسان به من لا عقل ولا منطق ولا قواعد؟" (٨)

وعند "صموئيل بكت" أن الإنسان "أشرف ما في الكون، والذي ينير حقيقته ليس هو الكون، لأن الكون أبكم أعمى لا ينطق ولا يبين ولا يدري من أمره شيئاً، وإنما يجد الإنسان في داخل نفسه ما يضيء له حقيقة نفسه". وتلك هي خلاصة

فلسفة "بكت" التي يدين بها لإمام الوجودية المسيحية "بسكال". فعند الأخير إن الإنسان، وإن يكن

نبثاً ضعيفاً، إلا أنه نبث مفكر. وإن الكون

إن أهلك الإنسان، فإن الإنسان يكون

أشرف ممن يهلكه، لأن الإنسان

يعلم أنه يموت، أما الكون

فلا يدري ماذا يفعل". (٩)

تلك هي -بإيجاز شديد-

الخطوط العريضة للرؤية

الطليعية التي مارست دورها

الملحوظ في بناهم الفنية: فوضى تعم

الكون والعالم، ولا تدع لحركة الإنسان

فيهما هدفاً محدداً أو مصيراً معلوماً.. كون

أنشأته الصدفة العمياء.. وعالم لا يقوم على قاعدة

من العقل. وإذا كان الناس طيلة تاريخهم قد اتفقوا على

مواضعات وأخلاق وقيم وتقاليد فما ذلك إلا لأنهم مجانين أو

عميان، لم يروا بوضوح عبث الكون أو يعقلوا سخف العالم.

إذ أن لهم أن يصطلحوا على ما هو ثابت في حياتهم، وليس

هناك شيء يمتلك عناصر الثبات لا الزمان ولا المكان ولا وحدة

الشخصية أو اللغة أو العادات والأعراف والتقاليد؟ ثم إن العقل

الأكبر الذي ظنوا أنه يسير الكون ثبت انتفاؤه إزاء العبث الطاعي

الذي يلف الكون ولا يدع لشيء فيه أن يقرّ له قرار.

الرؤية

الإسلامية

تؤكد على غائية الكون

وجدية الحياة، وجدوى الكدح

البشري، والعلائق المنطقية التي تربط

بين الإنسان والكون، وتقدير قيمة "العقل"

واحترام القواعد الأساسية للوجود:

الزمان والمكان ووحدة

الشخصية، والمعنى الذي

يسير الكون.





نفياً له.. والأمل الدائم بالتحقق بالوفاء والتصالح مع الكون.. ثم اليقين العميق الموغل حتى النخاع بقصدية الوجود البشري على الأرض ووظيفته الكبرى.

هذه كلها تنعكس بالضرورة على فنية الأداء أو أسلوبيته الإبداعية، وعبر الأجناس الأدبية كافة، تماماً كما انعكست هناك سلباً، ها هي ذي تنعكس ها هنا إيجاباً في الحبكة والسرد واللغة والحوار والمنولوج والشخص والفضاء، وسائر المفردات الفنية التي تعين على بناء العمل الإبداعي.

والآن، فإننا لو جئنا إلى ما تلقته مكتبة الأدب الإسلامي من أعمال مسرحية وقصصية وروائية، فإننا ومنذ الوهلة الأولى سنلتقي بناءً فنياً يختلف في مواصفاته الأسلوبية عما قدّمه العبيثيون.

وبقدر تجربتي المتواضعة في المسرح والرواية فإنني حاولت ما وسعني الجهد أن أقدم المعادلات الفنية للمضامين الفكرية. وقد وقفت قليلاً في الحلقة الأولى من هذه المقالات عند مسرحية "المأسورون" وبنيتها الفنية المغايرة للتراجيديا اليونانية التي امتد تأثيرها إلى المسرح الغربي المعاصر.

رواية "السيف والكلمة"

وأريد في هذه الحلقة أن أقف عند روايتي الأخيرة "السيف والكلمة" للتأشير على مفاصلها الفنية الأساسية التي تناقض معطيات العبيثيين، رغم أنها ترفض التشنج على التقاليد القديمة للجنس الروائي، وتمارس قدراً ملحوظاً من التجريب، لكن العبرة في المغزى الأخير. والمغزى الأخير يقدم للقارئ معادلات فنية مغايرة إلى حد كبير لمعادلات العبيثيين.

كانت "الإعصار والمذنة" خطوة على الطريق، ومعظم الكتاب - كما يؤكد "كولن ولسون" - "يتعلمون من روايتهم الأولى أكثر مما يتعلمونه من أية رواية أخرى".^(١٠) أما هذه فإنني حاولت فيها - ما وسعني الجهد - أن أنجز عملاً يضيف قيمة فنية جديدة، وأركز على العبارة الأخيرة، لأن الأدباء الإسلاميين بحاجة إلى هذه.. إلى الإضافة الفنية التي لا يوليها الكثيرون منهم - للأسف - الاهتمام الكافي.

هذا هو - إذن - المضمون الفكري للعبيثية، وهو في كل مفرداته يشكل معادلاته الفنية التي تجعل منه، - بإضافتها إلى خلفياتها التصورية - مذهباً في الأدب:

فوضوية الكون وعبث الحياة، ولا جدوى الكدح البشري، واللامعقولية التي تربط بين الإنسان والكون، والتمرد على "دكتاتورية العقل"، وربما إقصاؤه وإلغاء النظرة العتيقة "الكلاسيكية" لقواعد الكون الأساسية: الزمان والمكان ووحدة الشخصية، وتفكك هذه الشخصية.. القلق التاريخي الذي يسود الدنيا.. السخف واللامعنى اللذان يمسكان برقبة العالم.. الإحساس بالزوال في عالم بلا فضاء من الضوء واللون.. اللغة المفككة المفرغة من أي معنى.. الموت الذي يلغي مغزى الوجود البشري.. الأحلام والكوابيس باعتبارها تكتيفاً لمازق الإنسان ورعبه.. غياب الأمل في التصالح مع الكون.. وسخف ادّعاء اليقين. هذا كله ينعكس على أدب العبيثيين، لغة وحبكة وسرداً وحواراً ومنولوجات وفضاء وشخصاً.. وعلى سبيل المثال لم تُنح لهم رؤيتهم للعبث أن يطمئنوا للشكل المسرحي العقلي "الأرسططي" أداة للتعبير. فالمضمون في العمل الفني هو الذي يحدّد الشكل. لذا تمرد "يونسكو" ورفاقه على الواقعية المسرحية، ورفضوا ما اعتقدوه واقعاً منقوصاً تصدر عنه وتصوّره وتفضّره واعتسافاً، وانصرفوا إلى عرض ما كان يتراءى لحسّهم الفني ووعيهم الإنساني كواقع شامل بكل ما فيه من مأساة ومن مهزلة، وكل ما فيه من عبث وخواء وتناقض.

غائية الكون والرؤية الإسلامية

الرؤية الإسلامية تبهر باتجاه معاكس تماماً، حيث التأكيد على غائية الكون، وجدية الحياة، وجدوى الكدح البشري، والعلائق المنطقية التي تربط بين الإنسان والكون، وتقدير قيمة "العقل" واحترام القواعد الأساسية للوجود: الزمان والمكان ووحدة الشخصية، والاعتقاد العميق بالمعنى الذي يسيّر العالم.. والإحساس بالضرورة والدوام والامتداد، وبقدرة اللغة اللامتناهية على التواصل.. والاعتقاد بأن الموت تأكيد لمغزى الحياة وليس



توظيف التقنيات في عمل فني إسلامي

تحاول الرواية توظيف الغزو المغولي لبغداد من خلال تنامي الحدث عبر أربعة أصوات، وبضماير متغيرة يغيب فيها الراوي تماماً (والذي تختبئ خلفه في معظم الأحيان اقتحامات فجأة للروائي نفسه كما فعلت في الإعصار والمثدنة)، وذلك في محاولة لتنفيذ معمار أكثر حداثة في العمل الروائي الإسلامي.

لقد تم كسر حاجز الزمن وتسلسله الرتيب، كما يحدث في بعض أعمال الحداثة الروائية في الغرب، إنه حاضر في نسيج السرد، وليس من الضروري أن يكون هذا الحضور كعقرب الساعة الذي يدور على نفسه ويظل يدور. إن الزمن الروائي في "السيف والكلمة" يماثل سيرورة الزمن الموضوعي في شكل تتابع أفقي "وهذا لم يمنع من رجوع السرد إلى الماضي، فهناك انقطاعات عديدة في سيرورة السرد المستقيم. والرجوع إلى الماضي جاء وفق نسق مزدوج، فهو إما في شكل ذكريات يستعرضها بعض الأبطال، أو يتولون استحضارها لتفسير سلوكهم".^(١)

توظيف الرموز

الرمز وُظفَ هو الآخر في "السيف والكلمة"، ليس رمزاً تجريدياً على أية حال، ولكنه مكسّو لحماً ودماً. إن الأبطال المحوريين الأربعة في الرواية هم في حقيقتهم رموز مجسدة لقوى الإنسان في مجاهدة المصير. شخوص تعيش الحياة وتنضب بالهم والوجع، وتأكل وتنفس وتصارع وتحلم وتتعثّر وتقوم العقل والروح والوجدان. كلهم يؤول إلى الضياع في نهاية الأمر، لأن الموقف الأحادي قبالة المصير محكوم عليه بالهزيمة، ليس بصيغة مجاهدة غير متكافئة على الإطلاق، يتحكم فيها القدر بخناق الإنسان ويسحقه، كما هو الحال في التراجمات اليونانية "الكلاسيكية"، ولكن بصيغة اختيار قد يكون خاطئاً، وعلى صاحبه -من ثم- أن يتحمل نتائج عمله. هذا المنظور الفني الصرف يعكس معادلاً موضوعاً إسلامياً: حرية الإنسان، والعدل الإلهي المطلق الذي يرتّب الأسباب على المسببات. إننا بأمس الحاجة إلى قيم فنية تعكس حالتنا الإسلامية بكل مفرداتها وحلقاتها.. تعكسها جمالياً، وليس عبر مقولات

العقل الخالص، وهذه هي مهمة الأدب. ومن هنا يمكن للمرء أن يُدين العديد من الأدباء الإسلاميين الذين لا يُولّون اهتمامهم للجانب الفني، ويرمون بثقلهم صوب المضمون. إنهم في هذه الحالة لا يكادون يفعلون شيئاً إذا أردنا أن نحاكمهم إلى مطالب النوع الأدبي وليس إلى الخطابة أو التاريخ أو الإعلام.

مهما يكن من أمر فإن الذي ينتصر في "السيف والكلمة" هو واحد فقط من بين أربعة شخوص طوهم المجاهدة الصعبة. لماذا؟ لأنه استطاع أن يتجاوز أسر الأحادية وأن يتحقق إنسانياً وفق مطالب الشخصية الإسلامية التي نادى بها هذا الدين. مرة أخرى يحدث هذا من خلال نبض البطل ومعاناته وتعامله مع الموجودات والخبرات والأشياء والمراثيات، وليس من خلال تجريد ذهني صرف.

توظيف الجغرافية والتاريخ

حاولت أيضاً أن أوظف الجغرافيا والتاريخ قدر ما أطيع.. لقد درست بإمعان جغرافية بغداد بأحيائها ودروبها وجسورها وأسواقها ومدارسها وملاعبها وحوانيثها... إلخ. درست أيضاً تاريخ بغداد لحظة الغزو المغولي.. عادات الناس وتقاليدهم وطبائعهم وأزياءهم وطعامهم وشرابهم.. جدّهم وهزلهم.. خفقاتهم الاجتماعي هنا وهناك.. لم أرد -طبعاً- أن أكتب عن تاريخ بغداد وجغرافيتها، ولكن جعل الفضاء الروائي أكثر صدقاً فنياً. كان علي أن أعرف حتى مقالات المتصوفة، يومها، وتقاليدهم العلماء والطلبة والدارسين.

استعرت من "الآخر" بعض الخبرات الفنية. ولم لا؟ ما دام الهدف هو توظيف التقنيات لإنضاج عمل فني يطمح أن يكون إسلامياً؟ ويمكن أن أشير هنا إلى واحدة من تلك الخبرات: ضمير الشخص الثاني الذي اعتمده الأديب الفرنسي المعاصر "ميشيل بوتور" والذي يقول عنه إنه يؤدي دوراً سحرياً، وإنه يدعو القارئ إلى المشاركة بنشاط في حركة القصة.

الصراع بين العقل والروح

الحق أنني وجدت في هذا الضمير ليس تنوعاً فحسب لضمائر





انطباعاً مأساوياً للاحتياح المغولي لبغداد، وأن تومض -من وراء الحزن والانكسار- بسبل النهوض والخلاص.

ولقد حاولتُ أن أقيم معمار الرواية وفق صيغة رباعية الأدوار والأصوات ينمو فيها الحدث عبر نقلات أربع لزاوية الرؤية، ومن خلال فعل وتداعيات أبطال أربعة وهم يشاركون في صناعة الوقائع والأحداث، ويغرقون في تيارات وعيهم الباطن، ويدخلون سبيلاً من المنولوجات التي تعكس رؤيتهم الانطباعية لتلك الوقائع والأحداث.. وهم ينطلقون منذ اللحظات الأولى، كل من اختياره الحر، لكي ما يلبث أن يجتاز شبكة من الدروب والصدمات والخبرات يجاهد كي يجعل خياره قديراً على تجاوزها بنجاح. ولكنه ينهزم في نهاية الأمر لأنه رمى بثقله صوب نقطة ارتكاز واحدة في الكينونة البشرية.

إنها دراما الصراع بين العقل والروح والوجدان والجسد.. ولن يُقدَّر لأحد فيها الخلاص إلا من خلال بذل جهد استثنائي للتحقق بالوفاق، وذلك ما تومئ به شخصية البطل الرئيسي. ■

(٦) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.

الهوامش

(١) تناولت أولاهما قضية "القدر والحرية" ووقفت ثانيتهما عند مفهوم "الواقعية"، حيث نشرت أولاهما في مجلة "الأدب الإسلامي" ونشرت ثانيتهما في مجلة "حراء".

(٢) دار الضياء، عمان ٢٠٠٠ م، وسيعاد طبعه بعنوانه الأصلي "حول استراتيجية الأدب الإسلامي" في دار ابن كثير، بيروت - دمشق.

(٣) ماهر شفيق فريد، مجلة المسرح، القاهرة، العدد ٩، ص: ٨٣.

(٤) المرجع نفسه، ص: ٨٣-٨٥.

(٥) يوجين يونسكو: ٥ مسرحيات طليعية، ترجمة وتقديم شفيق مقار، المقدمة، ص: ٢١-٢٢.

(٦) المرجع نفسه، ص: ٢٣-٢٤.

(٧) الدكتور نعيم عطية: الخطوط العريضة في مسرح يونسكو، مجلة المسرح، القاهرة، العدد ١١، ص: ٩٥، عن يوجين يونسكو: ملاحظات وملاحظات عكسية، ص: ٩١.

(٨) يوجين يونسكو: ٥ مسرحيات طليعية، المقدمة، ص: ٣٨-٣٩.

(٩) جلال العشري: صمويل بكت والأيام السعيدة، مجلة المسرح، القاهرة، العدد ٨، ص: ١٠٤.

(١٠) فن الرواية، ترجمة محمد درويش، دار المأمون، بغداد ١٩٨٦ م، ص: ٢٧٠.

(١١) محمد عزام، وعي العالم الروائي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٩٠ م، ص: ١٢٢.

الشخص في "السيف والكلمة"، ولكنه -فضلاً عن ذلك- فرصة مناسبة تماماً للمناخ الدرامي والمتوتر السريع الذي كانت الشخصيات الأساسية تعيشه.

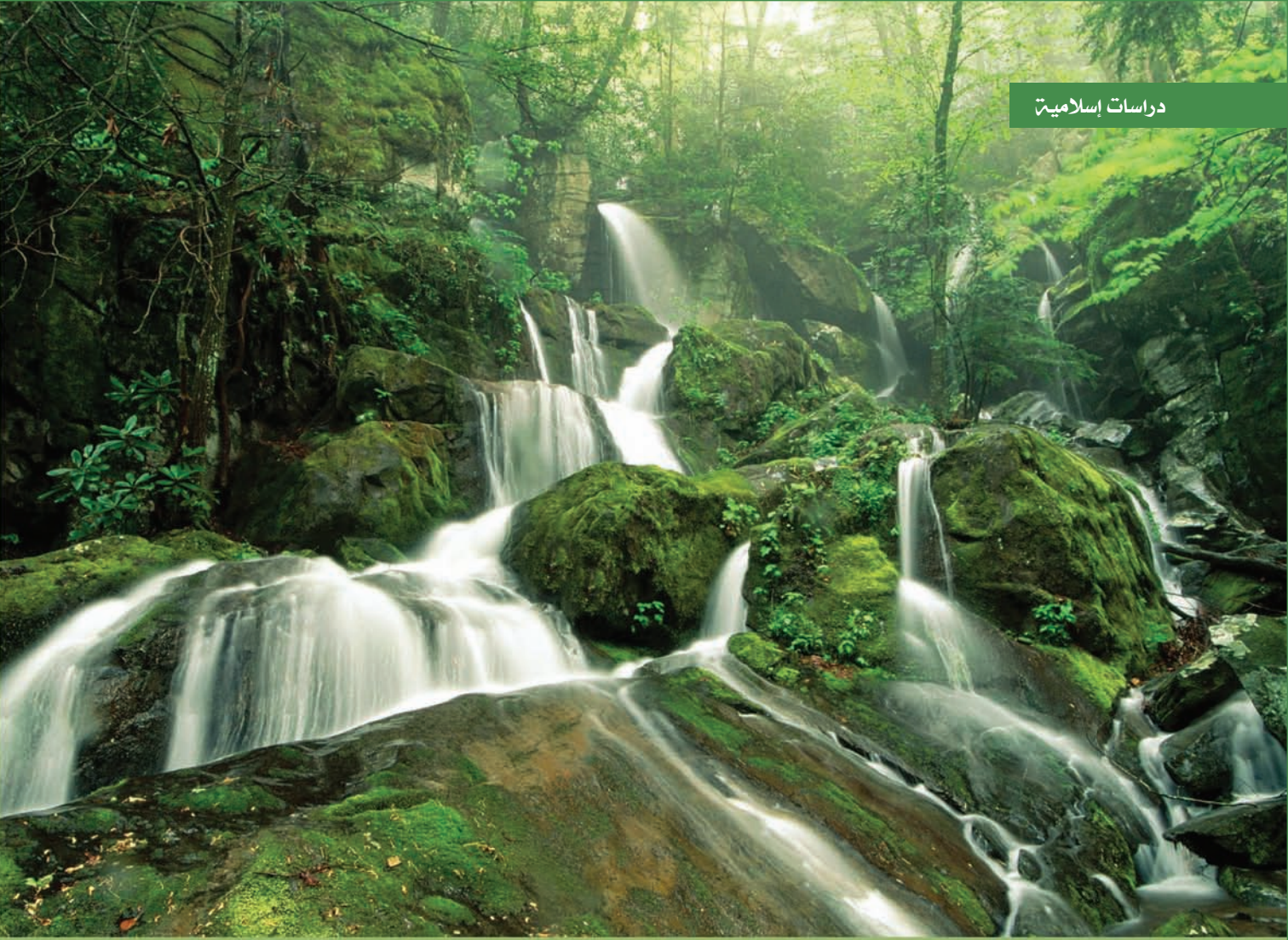
سأضرب مثلاً واحداً فحسب.. منولوج يديره الأب بصيغة الضمير المذكور:

"ذهبت إلى الكيلاني على استحياء والشوق يدفعك.. أشياء كثيرة أردت أن تفضي بها إليه.. قلبك الذي وسع بغداد كلها ينوء اليوم بهموم بغداد.. ليس هيئاً أن ترى أصدقاء وإخوانك يقتلون أو يرحلون.. ليس هيئاً أن تحتاز سوق الكتب فلا تجد فيه شيئاً.. لا أحداً ولا حانوتاً مفتوحاً ولا كتاباً.. ليس هيئاً أن ترى كل شيء جميل يحترق، وكل عزيز عليك بمضغ عذابه بصمت.. لم يكن هيئاً -أيضاً- أن ترى ابنك يغيب في الدروب فلا تكاد تلتقيه أو تعثر عليه، ولا أن تعطي ابنتك السكين وتقول لها: اقطعي الحبل الذي يشدك إلى المحبوب.. الزمن المغولي يضرسك، وجناحك يهبط فيتطاير منه الريش.. طال يوم الخلاص يا عبد القادر فكيف السبيل؟

"ذهبت على عجل، مجتازاً أحياء البدرية والجعفرية الأقل زحمة، فقالوا لك: خير لك أن ترجع.. تساءلت ووجع القلب يشدد عليك الخناق: لماذا؟ قالوا: إنهم يسدون عليه الطرق.. صرخت: لماذا؟ قالوا: لن يسمحوا لأحد أن يزوره أو يلتقيه بعد اليوم.. صرخت كرة أخرى: لماذا؟ لم يجبك أحد، وكان عليك أن تسترجع الصرخة المدوّمة في الفضاء الذي لا شيء فيه.. إن تعتقلها في روحك الموجعة، فهذا هو ذا الفضاء الوحيد المتبقي الذي لن يخترقه المغول".

لقد تعامل "المؤرخ" مع الغزو المغولي من الخارج، وهو لا يتابع الدقائق والتفاصيل، ولا يحاول النفاذ إلى العمق الإنساني للواقعة التاريخية، وإنما يكتفي برسم الهياكل الخارجية لها، في حين نحن بحاجة إلى رؤية الفنان لكي نسبر انعكاسات الحدث على النفس البشرية في أزقة بغداد ودورها وأحيائها ومساجدها وأسواقها وملاعبها ومكتباتها.. لقد حاولت الرواية أن تقدم





مفهوم الحياة في القرآن الكريم

أ.د. الشاهد البوشيخي*

لقد أخرجت الأمة إلى الناس بالقرآن الكريم، وبه صارت خير أمة أخرجت للناس، وبه كانت وحضرت في التاريخ، وفعلت ما فعلت من خيرات.. فهل هو الآن في المكان اللائق به؟

فساد التصور سبب فساد الواقع

ما سبب عدم بقاء الأمة في موقعها من الشهادة على الناس، وما سبب تدهورها من موقع الشاهد إلى موقع المشهود عليه؟ إن خلافاً ما وقع في الصلة بينها وبين القرآن، وهي أن لألفاظ كتاب الله ﷻ مفاهيم، ولمجموع تلك المفاهيم نسقاً عاماً يمثل صورة الإسلام بكاملها، ولا يمكن أن يتم التمكن من ذلك إلا بدراسة هذه المكونات لذلك النسق العام، ولتلك الصورة الكاملة. لا يمكن الفهم إلا بهذا الفهم، فهم الأجزاء ثم فهم الكل تبعاً

إننا نعيش حضارياً مرحلة في غاية الخطورة والصعوبة، نعيش مرحلة أشار إليها رسول الله ﷺ في الحديث المشهور: "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها" (رواه أبو داود). حديث القصعة وحديث الغناء على طول، يحدد في الحقيقة ملامح الواقع، كما يحدد الداء ويصف الدواء، ويحدد الداء في الوهن ويصف الدواء في عكسه، ويحدد الداء في حب الدنيا وكرهية الموت، ويحدد الدواء في خلاف ذلك. وفي الآية: ﴿أَوَلَمْ نَأْصَابِكُمْ مِصْبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٦٥)، إشارة إلى هذا الموضوع وإلى غيره.. وإن تسليط غير المسلمين على المسلمين إنما هو من البلاء الذي يعاقب به المسلمون على خلل فيهم.

إ



لفهم الأجزاء. ولا سبيل إلى صنع واقع قبل صنع تصوّر صحيح لما ينبغي أن يكون عليه هذا الواقع. إن فساداً في التصور السليم لمفاهيم ألفاظ كتاب الله ﷻ قد ساد، والحاجة ماسة الآن إلى تحديد فهم هذه الألفاظ، ماذا يريد بها الله ﷻ منّا أفراداً ومؤسسات وأمة؟

لفظ الحياة في كتاب الله ﷻ

ولهذا اللفظ تصوران مختلفان في القرآن..

أ-التصور الكفري للحياة: وهو تصور يقصر الحياة على الدنيا فقط. لا ينظر إلى ما قبل ذلك ولا ينظر إلى ما بعد ذلك ولا ينظر إلى ما مع ذلك. إذ مع الحياة التي ترى وتُشاهد كائنات وحياة أخرى لا ترى ولا تُشاهد. هناك التصور الذي تشير إليه الآية الكريمة محدّدة له: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (الجمانية: ٢٤). فهنا حصرٌ لمفهوم الحياة في هذه الدنيا فقط دون أن يُلحظ وأن يُعتَبر ما سبق، وما سيلحق وما هو كائن الآن. أقصى درجات العلم لديهم لا تتجاوز هذا السطح من الحياة الدنيا، ولا تتجاوز هذا المحسوس المشاهد. فكل ما ليس بمحسوس هو غير قابل لأن يُعلم. فجميع ما يترتب على هذه النظرة هو فهم الكفار لهذه الحياة التي تُثمر وتنتج أنشطة وأعمالاً تنسجم مع التصور الكفري للحياة، وهذا ليس هو العلم. لذلك نفى الله ﷻ العلم عنهم فقال: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٧)، وأثبت لهم العلم الظاهري بالحياة: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم: ٧).

وأنتج هذا التصور الكفري أموراً وتصرفات كثيرة بناء على العلاقة التلازمية بين التصور والسلوك، كحب الحياة الدنيا والافتتان بزينتها، والاطمئنان والرضا بما والحرص عليها مهما كان الثمن. كثير من المظاهر وصور السلوك نسبها الله ﷻ إلى الكفار ونفاها عن المسلمين. وهذه الأمور وقعت بسبب هذا التصور للحياة، أي حين ينطلق الإنسان من أنه لا يملك إلا هذه الحياة الدنيا، وحين يتصور الإنسان أنه لا يملك إلا فترة عمره فقط، فلا شك أنه سيكون حريصاً جداً على الاستفادة من هذه الحياة. أي حياة؟ كيفما كانت. حين ينطلق الإنسان من هذا التصور فعلاً يؤثره على سواه، لأنه يؤثر شيئاً بين يديه على شيء لا يؤمن به، فلذلك يقدم العاجلة لكونها عاجلة على الآجلة التي قد تكون وقد لا تكون حسب تصوره الكفري.

ب-التصور الإيماني للحياة: وهو تصور آخر للحياة، حياة ممدودة ممتدة، لا نهاية لها في الزمان البعدي ولا نهاية لها في الامتداد الآتي. الحياة الآن ليست فقط لهذا الذي يُرى، ولكن هناك كائنات حية مؤثرة في هذه الحياة، هي الموكول إليها ضبط أمر هذه الحياة نفسها. تأمل قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسُّوهُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٦)، بعدها مباشرة: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق: ١٧-١٨). وتأمل قول رسول الله ﷺ: "أُطِّتِ السَّمَاءُ وَحُقُّ لَهَا أَنْ تَبْطَأَ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِداً لَلَّهِ تَعَالَى" (رواه الترمذي). إن كائنات كثيرة تحيط بنا وهي التي وكل إليها حفظنا وحفظ ما يتعلق بهذا الكون مما لا نطيق نحن حفظه، قال الله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة: ٢٥٥). لقد خلق الله ﷻ جنوداً له في السماوات والأرض لحفظ السماوات والأرض وما بينهما.

هذا الإيمان بوجود كائنات حية بجانبنا لا تُرى هو من صميم ما يدخل في مفهوم الحياة في هذه الدنيا، لأن الإنسان عندما يتصور أنه وحده في الكون، يكون له سلوك؛ وعندما يتصور أن معه أحياء لهم دور يكون له سلوك آخر. إذن ماذا بعد الموت؟ هل حقاً ينتهي الإنسان حتى قبل البعث؟ وهل يوجد موتٌ بمعنى الفناء التام؟

حقيقة الموت في التصور الإيماني

الموت في الحقيقة هو مجرد انفصال بين عنصرين اثنين مؤسسين للإنسان وهما كما قال الله تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (ص: ٧١-٧٢)؛ فأدم عليه السلام في الأصل مسوًى من عنصر أرضي خالص هو الطين، وفيه عنصر غير أرضي هو من أمر الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (الإسراء: ٨٥).

الإنسان هو ذرية آدم بعد آدم، يحكمه نفس المنطق، يمكث في بطن أمه أربعين يوماً نطفةً، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح.. هذه الازدواجية في الخلق تجعلنا نفهم أن حال الموت لا يؤدي إلى إلقاء الطرفين، وإنما يؤدي إلى الفصل بينهما، فيرجع ما أصله التراب إلى التراب، وتصعد الروح إلى بارئها، وهو ما يسمى بالحياة البرزخية. وقد نُصَّ على الحياة في هذه المرحلة بالنسبة إلى نوعية



معينة ههنا القرآن عن أن نسميهم أمواتا: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ (البقرة: ١٥٤). هذا النص يدل على أن المجاهدين أحياء، والحقيقة أن الجميع من حيث أرواحهم أحياء، ولكن حياة السعداء في المنهج القرآني هي الحياة. أما البعث بعد الحياة البرزخية فيعتبر الخلق الثاني قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ (الروم: ٢٧). هذه الإعادة هي على نفس الأصل الأول، يعود العنصر الترابي للالتقاء بالعنصر الروحي فتكون حياة جديدة. فإذن، حتى المرحلة الوسطى المسماة بالحياة البرزخية لا تختفي الحياة فيها بالمعنى الكامل، وإنما تختفي الحياة فقط بالمعنى الدنيوي.

وتبقى حياة لها طبيعة خاصة تتلقى آثار الحياة الأولى المشار إليها في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ (يس: ١٢). وكأن الإنسان بعد مغادرته -بالموت- لهذه الدنيا، كأنه يُفتح له حساب في الدار الآخرة، في الحياة البرزخية، فالأعمال التي لا تنقطع بالموت تستمر وتدخل حسانتها في حسابه. قال ﷺ: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية أو علم يُنتفع به أو ولد صالح يدعو له" (رواه مسلم). وقال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ (يس: ١٢).

الدعوة للهدى أكبر مورد للحسنات

وعلى رأس تلك الآثار أجر الدعوة للهدى؛ قال رسول الله ﷺ: "مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورٍ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً" (رواه مسلم). بهذا المنطق الذي يشير إليه هذا الحديث يمكن فهم المدد المستمر للحسنات والذي لا ينقطع بالموت. ومصدر ذلك الأعمال الصالحة المخلاة وعلى رأسها الدعوة للهدى. كما يمكن أن ندرك أن رسول الله ﷺ أعظم المسلمين أجراً لأننا جميعاً ندخل إلى كتابه حسانتنا، ندخل إلى حسابه مثل ما نفعله من حسنات، لأنه الداعي الأول إلى هذا الخير وإلى هذا الهدى، فمن تبعه ومن تبع من تبعه -والأمر ماضٍ إلى يوم القيامة- يستفيد هو ﷺ من كل ذلك. وكل من تبعه ودعا بدعوته يستفيد من أجور من استجابوا له، وهكذا دواليك لا ينقطع مدد الحسنات عن الرسول ﷺ والتابعين له.

الحياة الأخرى هي الحياة

هذه الحياة الدنيوية لها خصوصية، وهناك الحياة الأخرى التي هي الحياة، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٤). وللأسف لا يعلمون، ﴿وَإِنَّ﴾ التوكيد بـ"إن"، والجملة الاسمية ﴿الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾، والتوكيد باللام ﴿لَهِيَ﴾، والتوكيد بالضمير "هي" أيضاً، ثم بزيادة الألف والنون في الحياة للمبالغة ﴿الْحَيَوَانُ﴾.. كلها إشارة إلى أنها هي الحياة التي تستحق أن تسمى الحياة، ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾. وفعلاً سننسى يوم القيامة هذه الحياة الدنيوية هائياً ولن تبقى حاضرة في أذهاننا ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ (الفجر: ٢١-٢٣)، ترجع له الذاكرة ليستعيد كل ما مضى، ويتذكر ما قبل ذلك. يتذكر العهد ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ (الأعراف: ١٧٢) قبل هذه الحياة الدنيا وقبل أن يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح، يتذكر العهد الذي أخذ علينا في مرحلة سابقة للتخلق الدنيوي، وأخذ على أرواحنا في مرحلة لا ندرىها، ولكنه كان.

مراحل الحياة والموت

ومجموع هذه المراحل أربعة وهو ما تشير إليه الآية: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِأَنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (غافر: ١١)؛ موت قبل هذه الحياة، وموت بعد هذه الحياة الدنيا، ثم حياة بين الموتين، وحياة لا موت فيها ولا موت بعدها وهي الآخرة التي تستحق أن تسمى "الحياة". إذن ما عادت مناقشة في مسألة الحياة، وما عاد لبس في أمر الحياة الآخرة إنما هي الحياة! فيقول الإنسان النادم بصراحة ناسباً ذلك لنفسه: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، وكأن الحياة الدنيوية لم تكن له حياة. لذلك سوف ندرك أن هذه الحياة الأخروية هي الحياة الحقيقية ولكن الناس نيام، فإذا ماتوا استيقظوا وعرفوا الحياة الحقيقية. هذه النظرة وهذا التصور للحياة الحقيقية الممتدة التي لا نهاية لها، والتي لا يُذاق فيها الموت إلا الموتة الأولى، أي لا موت بعد البعث... هذا التصور لتلك الحياة الممتدة، لها هذا البعد السابق للدنيا، والبعد اللاحق للدنيا في صورتين: صورة الحياة البرزخية وصورة الحياة الأخروية وهي الحياة الحقيقية. وكذلك في هذه الدنيا لها الامتداد الأفقي أيضاً الذي يجاوز المحسوس إلى غير المحسوس. هذا التصور إن استقر في القلب وحصل به الإيمان -وأركان الإيمان قائمة على هذا- فإنه يُنتج حياة فردية وحياة مجتمعية وحياة للأمة في صورة معاكسة تماماً للصورة الأخرى، ومغايرة لها كل المغايرة.



التصور المعين يستلزم سلوكاً معيناً

وعلى نفس القاعدة المقررة: "أن تصوراً معيناً لابد أن يلزم منه سلوك معين"، فتطبيقاً لهذه القاعدة تكون تصرفات ابن آدم الخارجية حسب ما هو مستقر في قلبه من التصورات. ويمكن أن نعكس من أجل الدراسة فنقول: إننا من التصرفات الخارجية - إن حللناها وعللناها بدقة - قد نستطيع استخلاص مدى رسوخ الإيمان ومدى عمق الإيمان ومدى انتفاء الإيمان أيضاً.. فحين نحدد في الخارج لدى المسلمين أخلاق الكفار - على سبيل المثال - يصعب علينا أن نقطع بإيمانهم، لأنه لا يمكن مع وجود الإيمان ألا يكون هناك عمل صالح. إذ "ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدق العمل" (رواه البخاري)، حين لا يوجد في الخارج العمل الطيب الصالح الذي يصدق دعوى الإيمان، تتجه التهمة إلى ما في الباطن، أي إلى أن الإيمان غير موجود بالمرة أو ضعيف. لا نستطيع التنقيب عن القلوب، ولكن الظواهر آيات وأمارات وعلامات كما قال ﷺ: "آية المنافق ثلاث" (رواه البخاري)؛ آيات وأدلة على ما لا يرى. فإذاً هناك قطيعة كاملة بين تصورين للحياة: تصور كفري قاصر قصير محدود، تنتج عنه كذلك أعمال وأخلاق وتصرفات ذات بُعد محدود، وتصور واسع عميق بعيد ممتد لا نهاية له تنتج عنه كذلك أخلاق لا نهاية لسعتها. إن الإسلام رحمة وإن الذي أنزل عليه الإسلام أيضاً صار رحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

أصل جميع المعاني الحسنة من الله ﷻ

لابد أن نقرر هاهنا حقيقة قبل المضي في معاني الرحمة، وهي أن جميع المعاني الحسنة أو الأسماء الحسنى إنما هي في الله ومن الله ﷻ، فلا رحمة في الكون ليس مصدرها الله ﷻ من جهة أنه الرحمن الرحيم، ولا علم في الكون ليس مصدره الله ﷻ من جهة أنه العليم، ولا قوة في الكون ليس مصدرها اسم الله من جهة أنه القوي العزيز.. وهكذا.

واستمداد الحياة نفسها من اسم الله الحي كذلك. فكل ذلك يعني أن جميع المعاني الحسنة أصلها من الله؛ فالأخلاق التي هي رحمة مصدرها اسم الله الرحمن الرحيم، إذ رحمته وسعت كل شيء، وإن كانت لن تكتب بعد في الحياة الحقيقية إلا للمؤمنين فقط، لأن التقوى فاصل حاسم بين فريق الجنة وفريق النار ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢٧).

الإسلام رحمة شاملة

إذن الإسلام جملة هو عبارة عن رحمة في قسمه النظري وقسمه العملي. ومحمد ﷺ هو الجانب التطبيقي لهذا القرآن - لأنه أوتي القرآن ومثله معه - هو المثل ﷺ حين قال وحين فعل وحين أقرّ مما صحّ طبعاً. إذن هو بالقرآن وبالإسلام صار رحمة. لكن لمن؟ هل هو رحمة لنفسه فقط أم هو رحمة لمن آمن به فقط؟ هل هو رحمة للإنسان فقط أم هو رحمة للإنسان والحيوان فقط؟ إنه رحمة للعالمين، والمسلمون رحمة للعالمين أيضاً. والمسلم بقدر قربته من محمد ﷺ يتسع معنى الرحمة فيه، لأن الإسلام الذي جاء من عند الله، جاء عاماً، يعمّ نفعه الناس جميعاً "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث" (رواه البخاري)، حاله كحال ضياء الشمس، حيث تشرق الشمس على البار والفاجر، وكحال هذا الهواء المشاع للجميع، وكحال الغيث ينزل على الجميع. والمسلمون الذين يمثلون ذلك الهدى - وهم في الحديث الطائفة الطيبة - عليهم أن يتسعوا في معانيهم حتى يصيروا كالغيث أو كالغيوث، أي كهذا المعنى العام للرحمة بكل مستلزمات الرحمة. إذ يدخل كل ما في كتاب الله في معنى الرحمة سواء ما اتجه منه إلى جهة الإنعام أو ما اتجه منه إلى جهة المؤاخذه والتأديب، فذلك أيضاً من رحمة الله، وذلك مظهر من مظاهر الرحمة الشاملة في الدنيا.

المعنى الحقيقي للحياة دافع إلى إثارة الآخرة

هذا المعنى للحياة هو التصور الإيماني الحقيقي للحياة، وعليه تُبنى حياة ويُنتج ويُصاغ إنسان، لا يؤثر العاجلة على الآجلة، بل يؤثر الآجلة على العاجلة، على هذا التصور يصاغ إنسان يريد بالدنيا الآخرة ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص: ٧٧). إلا أن الدنيا في موقعها من الحياة جملة - في التصور الإيماني الروحي هذا - مجرد متاع صغير بسيط واستمتاع بلحظات فقط، وهو نفسه ما تشير إليه الآية: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (البقرة: ٣٦). ولمن ذلك المتاع؟ لمن اعتبره هو الحياة. وهذا المتاع هو الذي يسمى بالنسبة للمعتبر به متاع الغرور ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد: ٢٠)، لكون الإنسان خلقاً معيناً فيه استعداد كبير للتجاوب والاستجابة للشهوات ﴿وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿(الشمس: ٧-١٠). وهذا الاستعداد في الإنسان للاستجابة للشهوات هو الذي رتب الله عليه سنة الابتلاء ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ



عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ» (الملك: ٢). وبسبب هذا الاستعداد كانت آيات كثيرة وأحاديث كثيرة ترهّد المسلم في الدنيا، بما في تركيب الإنسان من مِيل شديد إلى هذا الاتجاه؛ بل وتُمثّل له الدنيا بكاملها على أنها مجرد متاع أو متاع الغرور ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ (الكهف: ٤٥). ففي الآيتين معا تصويرٌ للحياة على أنها سريعة عابرة لا ينبغي أن تغرّ الإنسان بحلوها وحضورها وحضوره هو فيها.. كل ذلك ينتهي سريعاً، ولهذا قال ﷺ: "كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ" (رواه البخاري). فلو وضعنا زمانَ عمرِ كلِّ واحد منا -ولو كان ذا القرنين- إلى حساب ما سبق وحساب ما يلحق في الحياة البرزخية، وحساب ما سيلحق في الحياة الأخروية التي لا نهاية لها، لبدا الإنسان مجردَ عابر سبيل فقط، ليست الدار داره ولا مكان إقامته، ولا ينبغي أن يتعلق بها، بل يركب ما فيها ويتجه إلى الحياة الحقيقية، يستعملها ويريد الآخرة بها.

فساد التصور لمفهوم الحياة هو سبب الوهن

من هنا نأتي إلى أمر "الوهن" الذي بدأنا به الكلام وفسره الرسول ﷺ بحب الدنيا وكرهية الموت. ونتساءل كيف يحب المسلم الدنيا؟ لا يحبها إلا إذا شاب تصوّره لمعنى الحياة شوائب، إن لم يكن قد فسد تماماً، إذ ذاك فقط يمكنه أن يقصر حياته على الدنيا ويتجه إلى الدنيا، ويتعلّق بالدنيا ويهتم ويحرص على الدنيا، ويطمئن بالدنيا ويرضى بالدنيا...

لا يمكن أن يكون هذا إلا إذا كان في التصور فساداً. فيجب إذن أن يُرجع إلى الآيات الكريمة التي تتحدث عن الحياة مطلقاً. فحيثما وجد لفظ الحياة وحيثما كان لفظ الحياة، ينبغي تتبعه في سياقاته القرآنية لاستخلاص تصور شامل في النهاية لمفهوم الحياة في القرآن الكريم. لا بد أن يُحي معنى الحياة في القرآن الكريم في النفوس ليستطيع الإنسان أن يعرف معنى الحياة حقيقة. وهذا منهج كامل في استخلاص المفاهيم جملة لتصحيح التصور الجزئي والكلي لهذا الدين، انطلاقاً من كتاب الله ﷻ.

التصور الإيماني لحقيقة الحياة الدنيا

هناك تصوران أيضاً في هذا القسم الصغير المسمى بالحياة الدنيا: تصور يعتبر الحياة هي هذه الحياة المادية ويعتبر الأحياء هم هؤلاء الذين يمتلكون خواص الحركة والنمو.. إلى غير ذلك من المظاهر المادية

للحياة. هذا تصور ولا يُنفى؛ ولكن إلى جانبه يأتي تصور ثان للحياة على نفس القاعدة المعروفة: "الحج عرفة". بمعنى أن الحياة الحقيقية هي هذه التي سنتكلم عنها لا تلك التي تعبّر عنها المظاهر المادية. فما هي هذه الحياة؟ وما هذا التصور لها؟ ذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ (الأنعام: ١٢٢). ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ؟! مَنْ هَؤُلَاءِ؟ هَؤُلَاءِ أَمْثَالُ أَبِي بَكْرٍ وعمر وعثمان والمؤمنين جميعاً قبلهم وبعدهم حين ينتقلون من حال الكفر إلى حال الإيمان، ينتقلون من الموت إلى الحياة ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ (الأنعام: ١٢٢)، أي في ظلمات الموت الدنيوي. بينما المؤمنون يتولاهم الله تعالى فيحييهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: ٢٥٧)، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾، هل يستويان؟ أبداً ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ (فاطر: ٢٢).

المعنى الأول بسيط، والمعنى الثاني عميق، والندارة عموماً لا تنفع إلا في الأحياء بالمعنى الثاني ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ (يس: ٧٠). أما الذي ليس بحَيٍّ ولو وصلته الندارة كأبي جهل وأبي لهب، فإنه لا يستفيد، لن تنفع فيه الندارة إلا من جهة إقامة الحجة عليه ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٥).

وهذا التفريق بين الحي حقيقة والحي حكماً هو الذي جعل القاعدة الكبيرة تطرد في التطبيقات الواضحة في دعوة الله ﷻ للحياة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٤). فالمستجيبون هم الأحياء والرسول يدعوهم إلى ما يحييهم. فإذاً هناك الحياة العادية الحسّية، والإنسان بها في المنطق القرآني الإيماني لا يعتبر حَيًّا، وإنما هو مؤهل لأن يكون حَيًّا. ذاك تمهيد ومقدمة صحيحة تؤهل صاحبها لأن يتلقى ما يحييه، إذ الميت ولو دعواته فلن يستجيب ولن يسمع.

فلإنسان إذن في هذه الدنيا حياتان، حياةً عادية مادية خبيثة في تصنيف القرآن، وحياة روحية طيبة في تصنيف القرآن أيضاً ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهَ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧). حياة طيبة، وعكسها الحياة الخبيثة التي يكون أصحابها كما قال الله ﷻ فيهم: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ (الأعراف: ١٧٩). والسبب أن



وُلدت ولادة جديدة، وولد الإنسان الولادة الجديدة ليحيا الحياة الطيبة التي تسمى في منطق القرآن "الحياة الحقيقية".
وجميع أجزاء القرآن هي مُحْيِيَات قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (البقرة: ١٧٩). هذا حُكْم من الأحكام فيه عنصر من عناصر الحياة. أما قوله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٤). فدعوة للحياة بصفة عامة. فكل ما دعا إليه الرسول ﷺ من كتاب وسنة هو مما يحيي هذا الإنسان، ومما تجب الاستجابة إليه لنحصل على الحياة.

إذا كان الماء يُحدث الحياة في النباتات التي نراها في الأرض، فهو سبب الحياة أيضاً في الحيوانات والإنسان من جانبه المادي، لكن سبب الحياة الإيمانية هو القرآن، ولهذا سماه الله ﷻ روحاً ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ (الشورى: ٥٢). إذا كانت الروح بعد الشهر الرابع تنفخ في الجنين الطيب فيصير الإنسان بهذه الروح خلقاً آخر كما قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ (المؤمنون: ١٤)، وخلقاً آخر يتأهل بعد للتكليف، ويتأهل لعمارة الأرض، ويتأهل للخيرات في هذه الدنيا.. إذا كان بالروح يحدث له ذلك، وينشأ خلقاً آخر، فإنه بروح القرآن يُنشأ الإنسان أيضاً خلقاً آخر بالمعنى الثاني للحياة. فتلك روحٌ وهذه روحٌ، روح إذا نُفخت في الفرد صار خلقاً آخر، وصار طاقة جبارة متحررة مما سوى الله ﷻ، فلم يعد عليه لغير الله سبحانه سلطان. ومثل ذلك يحدث للأمة، إذ لا يمكن أن تتخلق الأمة -أي أمة الإسلام- لتصير أمة قوية متحررة من كل سلطان إلا سلطان الله ﷻ إلا بالقرآن، أي بروح القرآن، بل وتصير أمة متماسكة متساندة كما تحدث عن ذلك الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ..." (رواه البخاري). فللجسد خصائص الوحدة مع التنوع الداخلي، لكن مع التنوع يوجد التداخل التام والانسجام التام بين الأجهزة المكونة له. فالجسد مع التنوع له خاصية الوحدة، وكذلك الأمة مع تنوع العناصر المكونة لها خصائص الوحدة والتلاحم. وليصير المسلمون جسداً، لا بد لهم من هذه الروح ولا بد أن يحيوا بهذه الروح أفراداً، ويحيوا بهذه الروح أمة. ■

الأنعام لها غرائز تهديها بناء على الأصل الكبير ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه: ٥٠)، هدى جميع الكائنات هداية عقول، وهداية غرائز، وهداية تسخير وغير ذلك من الهدايات، إذ كل مخلوق ميسر لما خلق له، كما قال ﷺ: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له" (رواه البخاري). هذه قاعدة في الكائن الإنساني بالنسبة للاختيار في مسألة العمل، أما بالنسبة لباقي الكائنات فالتسخير فيها جبلي، يعني في أصل الخلقة. فكل الكائنات مهدية بهذا المعنى، سائرة إلى ما خلقت له. ولكن بالنسبة للإنسان ابتلي بالتكليف، والهدى حينما جاءه، جاءه وقد وُضِع فيه استعداد ليميز بين الخير والشر والصالح والطالح. فإن استجاب واهتدى فقد رشد فعلاً وقد اتجه إلى العمل الصالح والحياة الطيبة، وإن لم يستجب صار أحمق من الأنعام. لماذا؟ لأن الأنعام مهدية بالغريزة، وهو لم يهتد إلى هدى، فصار عاصياً جاحداً للنعمة أصلاً، وصار كافراً بالمرّة، بحسب الدرجة التي استقرت عليها وجهته باختياره، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ (الحجرات: ٧). إذن هناك الولادة الأولى والولادة الثانية، وما به تتم الولادة الثانية هو الذكر. وذلك ما أوضحه الرسول ﷺ في الحديث المشهور: "مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ" (رواه البخاري).

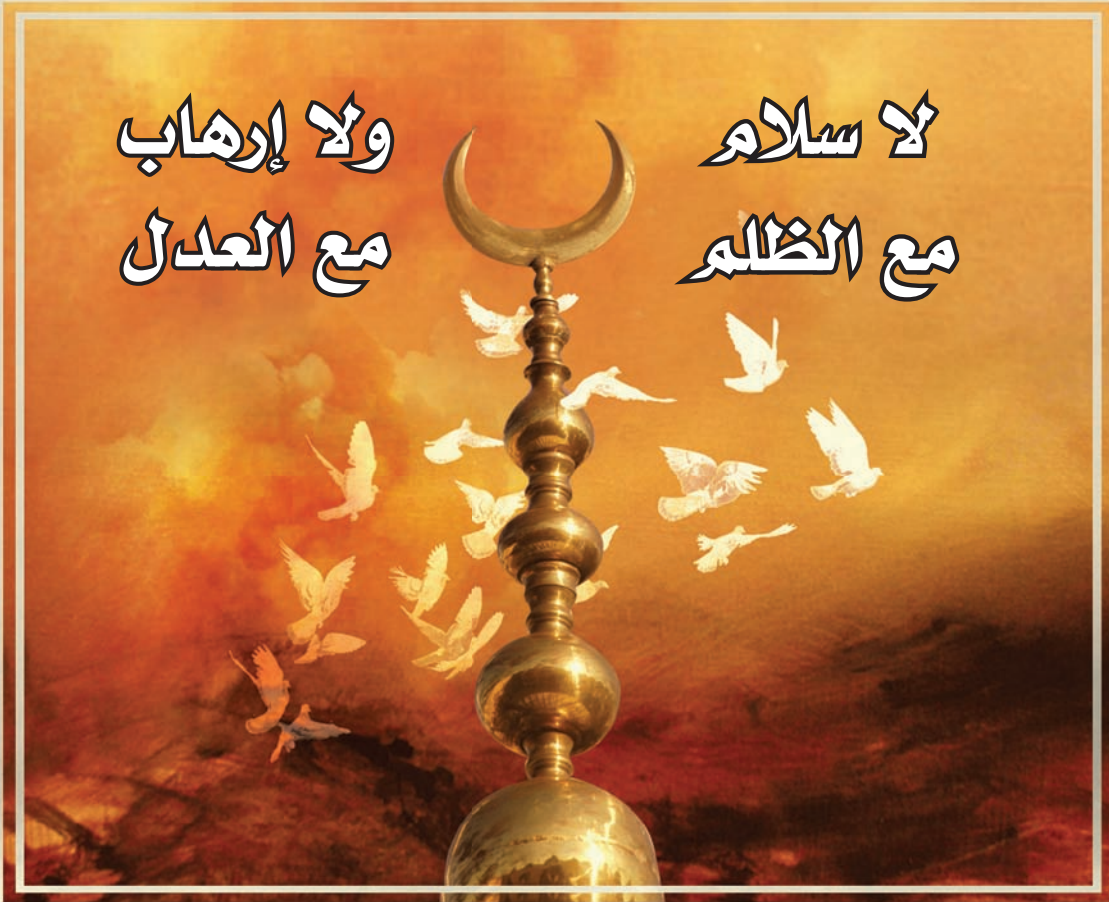
والذكر هو كل الدين، ولا وظيفة لرسول الله ﷺ غير هذا ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (الغاشية: ٢١). والذي أنزل عليه هو ذكر ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (التكوير: ٢٧).

القرآن ماء الحياة الحقيقية

فبهذا القرآن إذن وحده تتم الحياة، ولا سبيل إلى الحياة الثانية بالمعنى الصحيح إلا بماء الحياة. والماء الذي يتم به الإحياء هو هذا القرآن الكريم النازل من عند الله ﷻ، ولا سبيل إلى إحياء الإنسان الفرد ولا الإنسان الأمة بغير هذا الماء.

إن الله تعالى جعل الماء سبباً للحياتين: الحياة العادية المادية ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠)، والحياة الروحية هي أيضاً من الماء الذي عبر عنه الرسول ﷺ بالغيث بصريح العبارة: "مَثَلُ مَا بَعَثَنِي بِهِ اللَّهُ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضاً فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ..." (رواه البخاري). فهذا الماء هو غيث الأرواح فعلاً، كما يفعل الماء في الأرض فتنشجر الرحمة ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم: ٥٠). وإذا نزل غيث القرآن في القلوب وامتزج بها

(٥) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.



أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي *

إذن، فالعدل هو الوسيلة السلوكية المتبادلة التي توصل المجتمع إلى مناخ السلم، ومن ثم تحقق في حياة أفراده الأمن والطمأنينة، وإذا غاب العدل غاب معه الطريق الموصل إلى السلم.

ولما كان القرآن الذي هو خطاب الله الموجه إلى عباده جميعاً، يتضمن دعوة ملحة إلى سلوك السبيل المؤدي إلى واحة السلم، وذلك في مثل قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ (البقرة: ٢٠٨)، فقد ركز في تعريفه للسبيل المؤدي إليه، تركيزاً كبيراً متكرراً على ضرورة ممارسة العدل في العلاقات الإنسانية جمعاء، بل إنه يأمر الناس باللجوء إلى هذا الميزان في كل الأحوال ومع الآخرين أيّاً كانوا، وأياً كان نوع العلاقة معهم. تأملوا في حرارة هذه التوصيات وتأکید الأمر بها بمختلف الأساليب:

- ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨).
- ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (الأنعام: ١٥٢).
- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا

لا ريب أن السلم هو مطمح آمال المجتمعات الإنسانية كلها، إذ هو المناخ الذي يتحقق فيه الأمن وتشيع فيه الطمأنينة.

ولكن السلم ليس شيئاً يصنعه الإنسان أو عملاً يمارسه، إنما هو رغبة في النفس ومقصد من أهم مقاصد الإنسان. وإنما سبيل الإنسان إلى تحقيق رغباته والوصول إلى مقاصده، أن يبحث عن الأسباب الموصلة إلى تلك الرغبات والمقاصد، فيمارسها ويعكف على إنجازها.

فما هو السبب السلوكي الموصل إلى السلم؟ ما هي الوسيلة التي إن تمت ممارستها تحققت في المجتمع الإنساني حقيقة السلم؟ لا توجد إلا وسيلة واحدة لبلوغ هذا المقصد، إنه ممارسة العدالة في علاقة الإنسان مع الإنسان. ومن الواضح أن هذه الممارسة لا تتأتى من شخص واحد، إذ هي علاقة سلوكية تسري ما بين الأشخاص تلخص في عدم العدوان على حقوق الآخرين، وعدم التقصير في النهوض بالواجبات المرعية تجاه الآخرين، وإنما يتم ذلك بسلوكات نوعية متبادلة.



حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴿٥٨﴾ (النساء: ٥٨).

• ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ (النحل: ٩٠).

• ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات: ٩).

إن هذه الأوامر المتكررة بأساليبها المتنوعة والموجهة إلى الناس جميعاً للانضباط بموازين العدل، ليس إلا تفسيراً للكلمة ﴿ادْخُلُوا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ (البقرة: ٢٠٨). إنها بيان للمدخل الذي لا بد منه ولا بديل عنه سبيلاً إلى السلم.

وإذ قد ذكرنا معنى العدالة قبل قليل، وهو باختصار شديد رعاية الحقوق والواجبات، فمن اليسير إذن أن نعلم أن التطرف هو الجنوح عن هذه الرعاية. فكأن العدل هو الطريق الآمن العريض الذي تتلاقى على السير فيه الأسرة الإنسانية جمعاء، والتطرف هو الجنوح عنه شارباً ذات اليمين أو ذات اليسار. ولا ريب أن هذا الجنوح إذ يبتعد بصاحبه عن صراط العدل، لا بد أن يزرجه في لون من ألوان الظلم، إذ هما نقيضان إن غاب أحدهما حل الآخر مكانه. وإذا وقع الظلم انقدحت من جراء ذلك شرارة الفتن، وما هو إلا أن تعصف رياحها برواق السلم وتقضي عليه. إذن، على كل من ينشد السلم أن يبرهن على صدق بحثه عنه بتوخي العدالة والسهر على حمايتها وحراسة موازينها، بل إننا لا نشك أن كل من استهان بموازين العدل وضحى بحقوق الآخرين في سبيل مصالحه ورغائبه الذاتية، فهو عدو للسلم، ماضٍ في طريق القضاء عليه، سواء كان فرداً من الناس أو ممثلاً لدولة.

وعلى ضوء ما تقدم بيانه، نستطيع أن نبرز معنى "الإرهاب". هذا المعنى الذي ظل مخبوءاً عن الكلمة المعبرة عنه، على الرغم من إلحاح كثير من الدول والمجتمعات الإنسانية على الذين فاجؤوا العالم بهذا المصطلح واتخذوا منه فتيلاً لإشعال نار الحروب، أن يكشفوا للعالم المعنى الخفي الذي يقصدونه به.. أقول على ضوء هذا الذي تم بيانه، نستطيع أن نبرز معنى "الإرهاب" من تلافيف الخفاء. إنه كل جهد يهدف إلى العبث بميزان العدالة ويلجج على اغتصاب الحقوق انتصاراً للذات واعتماداً على مبررات القوة التي لا يتمتع بها الآخرون.

فكيف السبيل إلى حماية الطريق إلى السلام أن لا ينسف بأسلحة الإرهاب فتحجز المجتمعات الإنسانية أو أكثرها من السلام الذي تنشده، إذ يقوم بينها وبينه برزخ من القطيعة وفجوة

عميقة مما أحدثته يد الإرهاب؟

السبيل إلى ذلك اتباع القانون الذي أخذنا به بيان الله القائل: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٩). وبعبارة أخرى، السبيل إلى ذلك الضرب على أيدي المتربصين بالسلم. وإنما يكون الضرب على أيديهم بإنزال العقاب المكافئ لجريمتهم، وإنه للسياج الذي لا بد منه لحماية السلم. ولم ترد في القرآن ألفاظ الجهاد والقتال إلا تعبيراً عن هذا المبدأ، وليس فيه آية تدعو إلى الجهاد أو القتال، إلا ضد من يصرون على إبعاد موازين العدالة عن الطريق إلى تحقيق رعوناتهم وإلى بسط سلطان بغيهم على الآخرين. فإذا أقلع البغاة عن بغيهم وجنحوا إلى السلم، وجب الكف عنهم ومد يد التعاون معهم على حراسة السلام وتعبيد الطريق إليه.

يبدو هذا جلياً في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠). وتنبئنا جلياً أيضاً في قوله ﷺ: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المتحنة: ٨).

ومن كان دأبه أن يتتبع كلمات القتال والجهاد في القرآن، وأن يحصي أعدادها، ثم يقطعها عن المناسبات والجمل التي أحيطت بها، ليتأتى له أن يزعم أن القرآن قاموس إرهابي يصدر إلى الناس أوامر القتل والبغي والجهاد، فمشكلته أنه يعمي عينيه عن ألفاظ الغفو والصفح واللفظ والعدل والقسط التي يفيض بها القرآن الكريم. وهي لو أحصاها لبلغت أضعاف ما يتتبعه من ألفاظ القتال والجهاد؛ على أن الألفاظ أياً كانت، عندما تكون مفردات في القاموس لم تستعمل بعد للتعبير بها عن حكم أو قرار، فهي كالمادة الخام قابلة لأن توجّه إلى أي غرض أو استصناع. وما لم يتم إدخالها في طور الاستصناع والاستعمال، فهي إذن ليست أكثر من مجرد قابلات لأي توجيه أو صنع.

على أن العدالة إن غابت وحل محلها الظلم، فإن من الممكن أن نحتاج لوعاج الظلم في نفس المظلوم فيقضي على بعض البراءة في طريق انتقامه من الظالم، ولكن مردّ هذا التصرف إلى الثورة التي يحدثها الظلم في نفس المظلوم، وقد نهى القرآن عن ذلك وأمر المظلوم أن لا يسرف في الثأر أو الانتقام لنفسه بحيث يزهق مع حياة المجرم الذي ظلمه أرواح حاشية من البراءة، ألم يقل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ (الإسراء: ٣٣).

الإنسان والجمال

أنعم -يا إنسان- النّظر،
ومن سجن نفسك تحرّر،
ولحات الجمال تشرّب...
ودع قلبك يطر فرحاً،
وروحك يرقص طرباً...
واستشرف جمال "الجميل" في كل جمال؛
تطمئن نفسك، ويزدّد إيمانك،
وإلى ربّك تعدّ إنساناً،
وخالصاً في إنسانيتك...

ولواعج الثأر من شأن الطبيعة الإنسانية عندما يستشري الظلم في المجتمع، ويعتدّ القوي فيه بقوته إلى درجة أن يجعل منها بديلاً عن القانون وتفسيراً للحق. وهذه اللواعج تحتاح اليوم المجتمعات الغربية أكثر مما هي موجودة في مجتمعاتنا الإسلامية. أياً كان الأمر فإن الشريعة الإسلامية تلجأها بلجام التربية الدينية التي تتلقى غذاءها من عوامل الخوف من الله والاستسلام لحكمه وسلطانها. وإنا لنعلم أن في قوى الشر ما يستثير هذه اللواعج في نفوس المظلومين، لتدفعهم إلى تجاوزات تتخطى حدود الشرائع والقوانين، كي تلصق بهم تهمة الإرهاب، فيعثر المخططون لاستلاب الحقوق واستلاب الأوطان على المبررات الشكلية لذلك، وإنّ في أرشيف الذاكرة لنماذج ومستمسكات كثيرة لذلك. يطيب لي أخيراً أن أختتم حديثي هذا بسؤال أرجو أن أتلقي إجابة شافية عنه. في عام ١٩٧٦م رفع "وليم كليفورد" مدير معهد علم الإحرام في أستراليا تقريراً عن سلسلة مؤتمرات عقدتها المنظمة العربية للدفاع الاجتماعي ضد الجريمة المنبثقة عن الجامعة العربية، إلى هيئة الأمم المتحدة التي كانت قد أرسلته إليها بصفة مراقب، تضمن التقرير ما خلاصته لفت نظر الدولة الغربية إلى احتمال ظهور ما سماه "يقظة إسلامية جادة" في الدول العربية. فإذا قرن ذلك بما يملكه بعض هذه الدول من ينابيع النفط، فإن من الراجح أن اجتماع هاتين القوتين سيشكل خطراً حقيقياً على الحضارة الغربية. ثم يوصي التقرير بناءً على ذلك بأن تضع الدول الغربية أيديها بالطرق الممكنة على ينابيع النفط بأسرع وقت. إن الملاحظ أن التقرير الذي يبلغ ثلاثين صفحة لم ترد فيه كلمة "الإرهاب" على الإطلاق، ولم تكن إستراتيجية السياسة الغربية تستعمل هذا المصطلح بعد.

فما السبب في أن لصيقة "الإرهاب" هذه إنما تم العثور عليها ثم لصقها بالإسلام والمسلمين، بعد تلقي المؤسسات الغربية المعنية، لهذا التقرير الذي ينصح الدول الغربية باستلاب ينابيع النفط من أصحابها والعمل على منع "يقظة إسلامية جادة" يمكن أن تنبعث عما قريب.

هل للعالم العربي والإسلامي أن يتلقى جواباً شافياً عن هذا السؤال من المصادر التي تلقت تقرير "وليم كليفورد" ثم عكفت على دراسته ووضعه موضع التنفيذ؟ ■

(*) كلية الشريعة، جامعة دمشق / سوريا.





الثقافة التسامحية لدى العثمانيين

أ.د. سعاد يلدرم *

لنقف قليلاً عند هذه الحادثة.. مواطن عادي مسيحي يجترئ ليرفع شكواه على رئيس دولة المسلمين بكل ثقة واطمئنان. وأبو يوسف هو قاضي القضاة، أي في أعلى منصب قضائي في الدولة العباسية، والدولة في ذروة ازدهارها. وقاضي القضاة استمع إلى الدعوى دون أن يسوي بين الخصمين في المكان، لأن القاضي استحيا من أن يأمر الخليفة بالقيام والاقتراب من خصمه. وهذا خطأ بسيط جداً، إلا أن قاضي القضاة لم ينسه لدرجة أنه رآه الظلم الوحيد الذي ارتكبه في حياته القضائية واستغفر منه. ومن جهة أخرى فإن السرخسي بدل أن يصغر هذا الخطأ فإنه يشتد ويقول: "إن هذا من أهم ما ينبغي للقاضي أن ينصرف إليه". ولا ينبغي لنا أن ننسى أن هذه الحادثة نقلت في كتاب "المبسوط" أي في كتاب من أمهات مصادر الفقه الإسلامي، ومؤلفه فقيه مشهور، أي رجل قانون، ولم تنقل في كتاب أدب أو مناقب. وهذا هو الذي يكسب الحادثة قوة كبيرة. ومن ثم نستطيع أن نقول: إن

إن أبرز لوحة تُصور موقف الإسلام من غير المسلمين، هي التي نقلها شمس الأئمة أبو بكر محمد بن أبي سهل السرخسي عن الإمام أبي يوسف رحمهما الله. فإن أبا يوسف قال في مناجاته عند موته: "اللهم إن كنت تعلم أنني ما تركت العدل بين الخصمين إلا في حادثة واحدة فاغفرها لي". قيل وما تلك الحادثة؟ قال: "ادعى نصراني على أمير المؤمنين دعوى فلم يمكني أن آمر الخليفة بالقيام من مجلسه والمحابة مع خصمه، ولكن رفعتُ النصراني إلى جانب البساط بقدر ما أمكنني، ثم سمعت الخصومة قبل أن أسوي بينهما في المجلس، فهذا كان جوري". لُيَعْلَم أن هذا من أهم ما ينبغي للقاضي أن ينصرف إليه في العناية لما أشار إليه في الأثر فقال: "...لا يطمع شريف في حيفك ولا يخاف ضعيف من جورك" (رواه البيهقي)، والحيف هو الظلم. فاذا قدّم الشريف طمع في ظلمه وانكسر بهذا التقديم قلب خصمه الضعيف فيخاف الجور".

أ



غير المسلمين. فمثلاً عشيرة الأمير عثمان كانت تسكن قرية "سوغوت" في فصل الشتاء وتصد إلى هضبة "دومانيج" في الصيف ويترك أهاليها يبوهم وأمتعتهم عند أهالي "بيلاجيك". وعند رجوعهم في بداية الشتاء كانوا يقدمون إليهم مقابل ذلك الأغنام والأجبان والبسط والهدايا المختلفة لمحافظةهم على أماناتهم. وكانوا يرسلون إليهم هداياهم بواسطة نساءهم حتى يأمنوا من سطوتهم. وكان الأمير عثمان، يرى أن فتح أي مدينة عنوة يتسبب في خرابها، ولهذا كان يسعى لتأسيس العلاقات الحسنة لكي يفتحها صلحاً. وإذا سئل عن سبب هذه المعاملة كان يقول: "نحن جئنا إلى هذه البلاد غرباء، وهؤلاء هم أهلها لم يمنعونا منها، فعلياً أن نحترم حقوقهم ونكون أمناء في حقهم". وفي يوم من الأيام اشترى مسلمٌ تركي من سوق "بيلاجيك" عدة أكواب من تاجر مسيحي ولم يدفع له ثمنها. وعندما علم الأمير عثمان بهذا، استدعاهما وأخذ حق التاجر المسيحي من المسلم التركي وأرسل منادين في المنطقة ليعلموا أن الأهالي كلهم تحت حمايته ورعايته، وأنه سيقف ضد أي تعدٍّ نحوهم. ومن ثمرات هذه السياسة نرى أن الأمير أورخان بن عثمان (ت ١٣٦٢م) لم يتعرض لأي مقاومة أثناء فتح مدينة "بورصة" (١٣٢٦م)، حيث سلم أمير "بورصة" المدينة صلحاً. واتخذ الأمير "أورخان" مدينة "بورصة" عاصمة للدولة العثمانية.

ولم تكن النصارى وحدهم من لاقوا الأذى الكثير من الحكام البيزنطيين، بل اليهود الذين كانوا قد سكنوا القرى المختلفة في منطقة "ترافيا" أيضاً، فرحوا بفتح المسلمين الأتراك البلاد.

ولما سأل الأمير "أورخان" وزير إمارة "بورصة" -الذي لعب دوراً كبيراً في تسليم البلد- عن سبب تسليمهم بلدهم إليه قال: "إن هناك عدة أسباب؛ أولاً: إن دولتكم أصبحت تتسع وتقوى بسرعة، بينما دولتنا بدأت تنهار يوماً بعد يوم. وثانياً: إنكم ألحقتم مزارعنا وقرانا حوالي "بورصة" إلى حكمكم، فأرأينا العدل والأمان في ظلكم، ولاحظنا أنكم لا تأخذون أي شيء من أموال هؤلاء الناس، كما شاهدنا أن هؤلاء الناس رضوا عن حكمكم وصاروا كأهلهم لا يعرفوننا ولا يذكروننا. فلما رأينا طمأننتهم وراحتهم رغبتنا في حكمكم".

ثم واصل سلاطين آل عثمان فتوحاتهم في البلقان. وكان أهالي المنطقة هناك يعانون من الضرائب الباهظة التي فرضتها عليهم الدولة البيزنطية. الأمر الذي جعل معظمهم يختفي



هذه الحادثة الدالة تكفي وحدها لأن تلخص موقف الإسلام تجاه غير المسلمين. نكتفي بهذا ونتقل إلى تأسيس الدولة العثمانية. استوطنت عشيرة "قايي" التركية غربي الأناضول في النصف الأخير من القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد)، بأمر السلطان السلجوقي "غياث الدين كيخسرو" في حدود الدولة السلجوقية البيزنطية. وإن الأمير "أرطغرل" والد الأمير "عثمان" ينتسب إلى هذه العشيرة.

أقطع السلطان لـ "أرطغرل" قرية "سوغوت" في منطقة "بيلاجيك" حيث اتخذها مركزاً لعشيرته، وكان عامة أهل "بيلاجيك" من المسيحيين. وقد أسس الأمير "أرطغرل" علاقات طيبة قائمة على المحبة مع أمراء هؤلاء الأهالي وكسب قلوبهم. وابنه عثمان (ت ١٣٢٤م) أمر القرى التي بجواره، أن ينقادوا لحكمه مع حسن الجوار بالمسيحيين الذين كانوا يعيشون في تلك الناحية. ونشاهد أن الخط الأساسي في سياسة الدولة العثمانية منذ البداية، هو أن أمراءها توجهوا إلى الدولة البيزنطية، بدل أن يتقاتلوا مع نظرائهم من أمراء الأتراك المسلمين الذين كانوا يتنافسون فيما بينهم. فإلهم توجهوا إلى قلاع البيزنطيين وفتحوها وألحقوها بحكمهم شيئاً فشيئاً. لم يكتفوا باستعمال القوة العسكرية فقط، بل أسسوا علاقات ودية مع السكان





بالحكم العثماني، حيث كانت الدولة العثمانية تكتفي بضريبة خفيفة، مما مكّنهم من الاحتفاظ بأموالهم وأنفسهم في الوقت نفسه. ومن جهة أخرى فإن عامة أهالي البلقان كانوا ينتسبون إلى المذهب الأرثوذكسي وكان الأوروبيون يجبرونهم على الدخول إلى الكاثوليكية ويهددونهم بالقتل. واعتبر هؤلاء الناس العثمانيين منقذين لهم من أيدي هؤلاء الظالمين.

واستغل الأوروبيون ضعف البيزنطيين وحاجتهم إلى مؤازرتهم وتأييدهم فاشترطوا قبول مذهبهم الكاثوليكي. وفي يوم ١٢ ديسمبر ١٤٥٢م، صلّوا في الكنيسة الكبرى (آياصوفيا) حسب المذهب الكاثوليكي فكرههم أهالي القسطنطينية حتى قال رئيس وزراء الدولة البيزنطية مقولته الشهيرة: "بدل أن أرى في القسطنطينية قبعة الكاثوليك أفضل أن أرى فيها عمامة الأتراك". يقول المؤرخون إن توسّع أراضي الدولة العثمانية في الأناضول وفي البلقان يرجع إلى أسباب اجتماعية وأخلاقية بجانب قوتهم العسكرية، لأن القوة العسكرية لا تكفي وحدها لإخضاع بلاد تضم أقواماً من مختلف الأجناس واللغات والعروق والأديان..

فهذه ترجمة فرمان السلطان محمد الفاتح الموجه إلى أهل الذمة بعد الفتح في آخر جمادي الأولى سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣م):

١- أعطيتهم حرية العبادة وإجراء طقوسهم وشعائرتهم على ما تعارفوا عليه في تاريخهم.

٢- أموالهم وأرزاقهم ومخازنهم وبساتينهم وسفنهم وجميع أمتعتهم في حمايتنا، وأيضاً نساؤهم وخدامهم وعبيدهم وحواريهم مصونة من تدخلنا.

٣- لهم الحق في أن يزرعوا أراضيهم ويسافروا في البر والبحر دون أي تحديد أو تدخل.

٤- عليهم أن يدفعوا الخراج الشرعي سنوياً، وعلينا أن نحفظ أنفسهم وأموالهم.

٥- لهم حق العبادة وإجراء الطقوس ودراسة كتبهم، وليس لهم ضرب الناقوس. وعلينا أن لا نحول كنائسهم إلى مساجد وليس لهم إنشاء كنائس جديدة.

٦- ولتجار أهل الذمة أن يتجروا في البر والبحر، وعليهم أن يدفعوا ضريبة الجمرك حسب العرف، وهم مصونون من أي تدخل.

٧- لا نأخذ أولادهم للجيش ولا نجبر أي شخص منهم للدخول في الإسلام بدون رضاه.

٨- ولهم أن يختاروا رئيس جماعتهم لتمشية مصالحهم.

٩- وهم مصونون من أي عمل إجباري ومن أي عمل دون أجرة.

كما أعطى السلطان محمد الفاتح البطريق حقوقاً أكثر مما أعطته الدولة البيزنطية. فإنه دعا البطريق "كناديوس" وسماه "رئيس جماعة الروم". وبذلك منحه منصباً دنيوياً وإدارياً بجانب منصبه الروحاني. وكان البطريق يتمتع بمنصب "الباشا"، حيث خصص له محافظون لحراسته، وإنه كان من أعضاء الديوان السلطاني ممثلاً عن المسيحيين.

ومن جهة أخرى دعا السلطان بطريق الأرمن في "بورصة" إلى إسطنبول وعينه رئيساً لجماعات الأقليات من السريان والقطب والغجر إضافة إلى رئاسته لجماعة الأرمن. وقد أدى هذا التصرف إلى هجرة الأرمن إلى إسطنبول إلى أن وصل عددهم في القرن التاسع عشر إلى مائة وخمسين ألف نسمة. واتصل السلطان محمد الفاتح باليهود ضماناً لهم الحرية الدينية بشرط أن لا يعينوا البيزنطيين. وعندما طرد "لودويج" ملك باويرا سنة ١٤٧٠م و"فارديناند" ملك أراغون سنة ١٤٩٢م اليهود، التجأوا إلى الدولة العثمانية ووجدوا فيها المأمن والأمان. كما التجأ قسم من العرب الأندلسيين - في نفس الوقت - إلى

إسطنبول حيث عاشوا كأشقاء مع المسلمين العثمانيين. وكان يهود إسبانيا يتكلمون بلهجة "لادينو"، حيث حافظوا على هذه اللغة قروناً بمساحة من الدولة العثمانية. وكانت الدولة تريد أن تستفيد من تجربة اليهود التجارية ومن ثرواتهم.

لقد حافظ السلاطين على الكتائب العسكرية المسيحية وأعطتهم "التيمار" (حق تحصيل ضرائب الأراضي المعينة مقابل تجهيز عدد من العسكر)، وبذلك استفادت الدولة من قوتهم في حروبها. ومما يجدر ذكره أن السلطان محمد الفاتح طبق الأحكام الإسلامية في أهل الذمة، كما كانت هذه الأحكام معروفة لدى الشعب المسلم. ومع ذلك فإن المجتمعات لا تخلو من الناس المتطرفين. فلما اطلع السلطان على تصرف بعض الناس وإجبار غير المسلمين على الإسلام قال: "ما أجزأ هؤلاء على هذا الفعل! وهل يرون أنفسهم أحرص على الإسلام من الله؟". وحدث أحياناً أن بعضهم قدم طلباً إلى القاضي معلناً عن رغبته في اعتناق الإسلام، فلما تحقق القاضي من أن هذا الشخص أكره على الإسلام، رفض دعواه وأبقاه على دينه. وهذا مدون في السجلات الشرعية.. وحدث أن مسلماً سب الدين المسيحي أثناء مناقشته مع مسيحي، فرفعت قضيته إلى القاضي فحكم القاضي بأن ينفي هذا المسلم من المدينة.

حقوق أهل الذمة

إن الدولة العثمانية طبقت على أهل الذمة أحكام الإسلام كما ذكرنا آنفاً، ويمكننا أن نلخص حقوقهم كالتالي:

١- الحقوق والحريات الأساسية: كانوا يتمتعون بكل الحقوق،

كحق الحياة والعمل وحرمة المسكن وحق السياحة والاتصالات مثل المسلمين. وأما الاستثناء الوحيد هو منعهم من الدخول إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة. ومنعوا أيضاً في سنة ١٥٨٢م من الدخول إلى منطقة "السلطان أيوب" (المنطقة التي يوجد فيها ضريح الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه صحابي رسول الله ﷺ)، حيث اعتبرت هذه المنطقة من أهم المراكز الإسلامية في إسطنبول. وأسكنت الدولة أهل الذمة في ضواحي إسطنبول في الأحياء المخصصة للروم والأرمن واليهود... إلخ. وقد حدد بعض السلاطين ارتفاع بيوت هؤلاء الأهالي واشتروا أن يكون ارتفاع بيوت غير المسلمين أقل بقليل من بيوت المسلمين.

٢- لهم الحرية الدينية، أي حرية العبادة والمعبود وتعليم الدين

وفتح المدارس الأهلية، إلا أنه كان هناك بعض التحديدات الخفيفة في الشعائر الدينية؛ مثل إظهار الصليب وضرب ناقوس يبقى في داخل المعبد ولا يظهر في الخارج في الأحياء التي كان معظم سكانها مسلمين. وحسب الفقه الإسلامي يستطيع أهل الذمة أن يحتفظوا بمعابدهم القديمة إذا فتحت البلدة صلحاً. وأما إذا فتحت عنوة فالسلطان مخير بين الإبقاء عليها أو هدمها. ورغم هذا الحكم أبقى السلطان محمد الفاتح كنائس إسطنبول كما كانت، وتبعه في هذا الأمر من جاء بعده من السلاطين. وأذن في بعض الأحوال المحددة لإنشاء كنائس وصلوات جديدة (أي معابد اليهود) واشترط إذن الدولة لترميم المعابد القديمة. وقد بلغ عدد الكنائس مائة وأثنى عشرة كنيسة، وعدد الصلوات ستاً وثلاثين في إسطنبول سنة ١٨٨٥م.

٣- الحرية السياسية والإدارية: لهم حق الدخول في قطاع الدولة كموظفين باستثناء الوظائف التي تخص المسلمين. وليس لزمي أن يكون رئيساً للدولة أو قائداً للجيش أو رئيساً للوزراء أو والياً في الولاية أو قاضياً. كما كان عليهم أن يراعوا النظام العام والآداب العامة مثل المسلمين تماماً. وخلال حكم السلطان سليم الأول تبين للخليفة أن قسماً من الروم حاولوا أن ينظموا حركة انفصالية، وتعاونوا في ذلك مع نصارى جزيرة "مورا"، فأراد أن يأمر المسيحيين أو يخيرهم بين الإسلام وبين الخروج من إسطنبول، فاعترض عليه شيخ الإسلام "علي جمالي" (الملقب بزنبلي) قائلاً: "إن جدك أعطاهم الأمن والأمان، فلا يجوز لك شرعاً أن تكرههم على ذلك".

ولما تحققت الدولة أن بطريق الروم تعاون مع أهل جزيرة "مورا" في سنة ١٨٢١م، اعتقلته ثم أعدمته. ثم ضعفت ثقة الدولة في الروم وبدأت تبعدهم عن الوظائف الحكومية ووجهتها إلى الأرمن بدل الروم.

وكانت العلاقات الإسلامية والمسيحية واليهودية حسنة إلى حد كبير منذ بداية الدولة العثمانية، واستمرت هذه الحالة قروناً. ومنذ بداية القرن التاسع عشر استطاع أهل الذمة أن يتعاقدوا مع شركات وتجار أوروبا ووسعوا ثرواتهم ونفوذهم. وبينما كان المسلمون الأتراك منهمكين بالحروب والإدارة، اشتغل أهل الذمة بالتجارة والصناعة. ونتيجة لهذا أصبح الأتراك محكومين اقتصادياً بعد أن كانوا حكاماً.



واجبات أهل الذمة

الأوروبيين الدولة العثمانية، لأن الدولة كانت دولة حقوق وقوانين؛ كانوا يدخلون مستأمنين يتجولون ويتجرون، وكان بإمكانهم أن يجدوا من كل المذاهب من يتكلم بلسانهم، أي ما كان هؤلاء يحسون بالغربة. أما المسلم فما كان له أن يدخل إلى أي بلد أوروبي، إلا إذا رضي بالقتل، بسبب التعصب السائد في تلك العصور في أوروبا".

الحقوق الإنسانية في الدولة العثمانية

والدولة العثمانية كانت رائدة في حق الحقوق الإنسانية الأساسية، ولا سيما في الحرية الدينية كما قال "غيبون": "لا يستطيع أحد أن يعترض على أن الدولة العثمانية هي الدولة الأولى التي اعتبرت مبدأ حرية الأديان كحجر الأساس في نظامهم".

لندع أوروبا في تلك القرون جانباً وننظر إلى أوروبا في القرن التاسع عشر والعشرين؛ فرنسا التي تدّعي أنها مهد الحرية والتي استولت على الجزائر في ١٨٣٠م وبقيت فيها ١٣٢ سنة، ماذا قدّمت للجزائريين من تلك الحقوق؟ فهل يمكن أن نجد وزيراً بل نائباً من الجزائر في برلمان فرنسا؟ لا أبداً.

أما إذا نظرنا إلى الدولة العثمانية فيمكن أن نجد أكثر من خمسين شخصاً من غير المسلمين ما بين وزير ونائب.

وهذه المقارنة توضح لنا كل شيء، إذ نوجزها بأن الدولة العثمانية قصرت صلاحيتها على المجتمع؛ في الحكم والأمور المالية والجيش، وأودعت كل ما وراء ذلك من التعليم والتربية والضمان الاجتماعي والأمور الدينية والأحوال الشخصية وإدارة النفوس والإعلام للمسلمين ولغير المسلمين، إلى الشعب الذين كانوا يديرونها على أساس التنظيمات الدينية والمذهبية، كما أودعت أوقافهم المختلفة. وكان غير المسلمين يُجرون أمر النكاح والطلاق والنفقة والميراث والوصية داخل جماعاتهم في محاكمهم الخاصة. والدولة كانت تنفذ هذه القرارات كما وردت. وكان بإمكانهم أن يفتحوا مدارسهم ويضعوا برامجها ويختاروا مدرسيها بكل حرية. وبسبب الإهمال في مراقبة تلك المدارس، بدأ يدب فيها الفساد اعتباراً من القرن التاسع عشر. والسبب الأساس يرجع إلى عدم وجود الأشخاص الذين يتقنون اللغات الأجنبية التي كانت لغة التدريس في تلك المدارس والكلية. ولهذا الخلل فإن معظم الأمور الخارجية والدبلوماسية بقيت في أيدي الأقليات غير الإسلامية. يبدو أن الدولة العثمانية ركزت على وحدة أراضيها وعدم

ومقابل هذه الحقوق كان هناك بعض الواجبات على أهل الذمة. أولاً: الجزية وهي ضريبة يختلف مقدارها حسب الظروف، حيث كانت تؤخذ من الرجال البالغين فقط، ولا تؤخذ من النساء والأطفال والشيوخ ورجال الدين والمرضى. وكانت تؤخذ تعويضاً عن الخدمة العسكرية التي كُلف بها كل المسلمين. ولذلك عُيّر اسمها إلى "بدل العسكرية" في سنة ١٨٥٦م. وإذا ما التحق أهل الذمة بالجيش، فإن الدولة العثمانية كانت تعفيهم من الجزية. على سبيل المثال، سمحت الدولة العثمانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر بدخول المسيحيين في جنوب رومانيا إلى الجيش. ثانياً: كان الزراع مكلفين بالخراج. وكانت الإدارة العثمانية تعتبر أراضي الأناضول و"الروم إيلي"، أي معظم أراضي الدولة العثمانية من الأراضي "الأميرية" (خراجية)، لذلك كان الزراع كلهم من المسلمين ومن غير المسلمين متساوين في هذه الضريبة. وثالثاً: كل المستوردين كانوا مكلفين بضريبة الجمرك، إلا أن نسبة ضريبة أهل الذمة كانت أكثر بقليل من ضريبة المسلمين. كما كانت البضائع والأموال التي تستعمل في المعابد الدينية معفوة من ضريبة الجمرك. وقد خففت جداً هذه الضريبة بالامتيازات التي نالها غير المسلمين منذ القرن السادس عشر.

وكان هناك بعض التحديدات على أهل الذمة:

فهم كانوا لا يظهرون الصليب ولا يضربون الناقوس إلا في داخل الكنيسة. ولا يكون ارتفاع بيوتهم أكثر من ارتفاع بيوت المسلمين. ولا يقلدون المسلمين في ملابسهم ولا يبيعون الخمر ولحم الخنزير إلا في المناطق التي يسكنها غير المسلمين. وبجانب أهل الذمة الذين كانوا مواطني الدولة، كان هناك المستأمنون من رعايا الدول الأجنبية. وكانوا يتجرون ويتجولون في داخل الدولة للتنزه والاستطلاع تحت حماية الدولة.

وإذا نظرنا إلى أوروبا في تلك العصور فماذا نجد فيها من هذه الحقوق؟ أرغب في هذا الصدد أن أنقل كلام المستشرق "برنارد لويس". فعندما زار تركيا قبل عشرين سنة تقريباً أُحرقت معه مقابلة تلفزيونية، وسأله المراسل: "نحن نرى كثيراً من الأوروبيين قد تحولوا وكتبوا مذكرات سياحية داخل الدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، في حين لا نجد من الأتراك من كتب عن الأوروبيين؟".

فأجاب "لويس": "لم يكن أي مانع في تلك الآونة من زيارة





المأساة

وحدهما...
كوهن النسيم يمضيان،
والطريق يقطعان...
لا دمة حزن من وليد،
ولا خفقة قلب من حفيد...
آلام الغربة يحيان،
ومصيرهما يجهلان...
ولكهما يمضيان، ولا يلويان...
جناحا وروحيهما مشرعان،
يكما يسارحان...
إلى سحيق من الجهول يُمدّنان،
كمن ضاح صمرو، واستند أليامه...

تجزئتها أكثر من الوحدة الثقافية. ولما لم تستهدف الدولة سياسة الوحدة في اللغة والثقافة لم تتحقق المواطنة المطلوبة بين المسلمين وغير المسلمين. ولذلك لم تستطع الدولة أن تحوّل العلاقة بينها وبين رعاياها إلى علاقة مستمرة باقية. والحقيقة أن الإدارة الذاتية في حقل الدين والأحوال الشخصية، لم تكن لتشكل مانعاً أمام الدولة من تحقيق وحدة المواطنة.

فلو كان باستطاعتها تحقيق حقوق المواطنة مثلما تحقق في الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً، لربما استمرت الدولة العثمانية، وهذه فرضية. ومن زاوية أخرى نستطيع أن نقول إن الدولة العثمانية استمرت ستمائة سنة، وماذا تكون عاقبة النظم الحالية بعد مائة سنة؟! والله أعلم.

ونستطيع أن نشير هنا كتمة لهذا البحث، أن قسماً من أحفاد العثمانيين يواصلون تمثيل هذا الموقف السليم في الوقت الحاضر، فلمحبّي فضيلة الأستاذ المربي محمد فتح الله كولن نشاطات كثيرة في هذا المجال. فهم يقومون من جهة بإجراء الحوار مع المثقفين الذين لم يتربوا تربية إسلامية فصاروا ضد الإسلام والإسلاميين، ومع غير المسلمين من جهة أخرى. وأسس الأستاذ محمد فتح الله كولن علاقات طيبة ببطريق الأرثوذكس ومع البابا يوحنا بولس الثاني في الفاتيكان، ومع رئيس كنيسة اليهود ومع العديد من رؤساء الأقليات الدينية الأخرى. فقد نظمت هذه التجربة عدة مؤتمرات دولية في إسطنبول في أعوام ١٩٩٨-٢٠٠٠م، وفي مدينة "أورفا" عام ٢٠٠٠م. ونظم مركز الحوار في جامعة "جورج تاون" في الولايات المتحدة الأمريكية في شهر مارس من سنة ٢٠٠١م، مؤتمراً لتقييم نشاطات محمد فتح الله كولن. كما حصلت هذه التجربة على ثمرات مفيدة وملموسة من هذا الحوار الذي أسهم في تقليل التوتر بين الثقافات والأديان. المهم أننا معاشر المسلمين فقدنا قوتنا السياسية والاقتصادية، وليس لنا كلام مسموع في هذه المجالات في الوقت الحاضر. ولكن عندنا ثروة هائلة وقوة عظيمة وهي قوة العقيدة وقوة دين الحق التي لا تنفد.

ولو اتصفنا بالأخلاق الحميدة والاستقامة التي رأيناها عند أبي يوسف وعند السلطان عثمان ومحمد الفاتح، ولو أظهرنا كمالات الإسلام الأخلاقية، لرأينا نتيجة مثمرة مباركة ولحققنا رسالتنا في الحياة والله الموفق. ■

(*) كلية الإلهيات، جامعة مرمرة بـ "إسطنبول" / تركيا.





بين الشام ومكة

جمال الحوشي*

السماء صافية، ونسائم الصبا تداعب كنبان الرمل في ضوء القمر. النجوم أخذت تزهر مذ خيم الظلام، وبدأت كأها على موعد مع مناسبة سعيدة طال انتظارها. ها هي القوافل تلقي بأحمالها لتستريح في عرض الصحراء الباردة، وقرية من نيرانها الموقدة تجمع نفر من الرحالة يصطلون ويتسامرون، كما هي العادة في ليالي الصحراء. كان الزمهرير قارساً والظلام حالكاً، ولم يخطر ببال أحد من الرحالة أن ينظر إلى السماء حين اخترق السكون

الطريق إلى مكة من أرض الشام طريق تجاري ضارب في القدم، تلتقي فيه روافد الطرق الأخرى الكثيرة من سائر بلاد العرب. وهو طريق عامر ترتاده القوافل العربية، وبخاصة إذا حل فصل الصيف القاسي في جزيرة العرب، ولا يوازيه شهرة إلا الطريق القادم إلى مكة من أرض اليمن في فصل الشتاء. على امتداد الطريق الشامي في تلك الليلة المباركة كانت



المهيب فجأة فرسٌ مجتَّح يطير بسرعة البرق الخاطف قادماً من أرض الشام في طريقه إلى الحجاز.

لم يكن ذلك سوى البراق.. الدابة المباركة التي أعدها الله تعالى لتنقلات أنبيائه ورسله بين قارات العالم. لكنها المرة الأولى التي يشاهد فيها مخلقاً فوق سماء الجزيرة منذ انقطاع الرحلات المتكررة للخليل ﷺ بين مكة وبيت المقدس. فمن النبي الكريم الذي امتطاه تلك الليلة؟ وأي مهمة عاجلة جاء منها؟

كان الراكب في تلك الليلة المباركة "محمد بن عبد الله" النبي القرشي ﷺ. وقد عاد للتو من بيت المقدس بعد أن أقيمت على شرفه في ملكوت السماء أعظم مراسم الاحتفاء لكائن بشري بعد آدم ﷺ. غير أن قصة التكريم المحمدي هذه -التي اكتمل تنويعها في ليلة الإسراء والمعراج- تم التمهيد لها قبل ذلك بكثير، بل إن فصولها تعود إلى الأيام الخالدة الأولى في تاريخ النبوات، ولعل أظهرها يومان مشهودان عمرت بهما بطاح مكة وشعابها. أشرقت شمس اليوم الأول على بيوت مكة مع مقدم شيخ وقور متوجه صوب بيت إسماعيل ﷺ يتفقد ذريته ويتعهد أهل البيت. كان ذلك إبراهيم خليل الرحمن ﷺ. أما المهمة التي جاء من الشام لأجلها فمباركة المحضن الصالح وتزكية المنزل الذي ستنقل منه السلالة الطاهرة التي سيخرج منها الغلام الهاشمي عليه الصلاة والسلام. وفي ضحى اليوم الآخر كان إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام يحدان حدود البلدة المباركة، ويخطان الأصول الكبرى لدعوة النبي الخاتم الذي سيظهر منها، وهما يرفعان القواعد ويدعوان الله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧-١٢٩).

إن الله ﷻ يخلق ما يشاء ويختار. وقد نظر في قلوب العباد فاصطفى قلب سيدنا محمد ﷺ منها، ثم حفظ نسله في رحم الغيب وتنقل به في محاضن الطهر جيلاً بعد جيل.. ما بين بابل ومصر وإيلياء، ثم اختار له من أرض الحجاز خير دار. ومن جوار زمزم في الوادي المبارك دنت ساعة الرحمة ونبعت عين الحياة، فولد الهدى ﷺ سالماً من النقص، محفوفاً بالتشريف، ومكلوفاً بعين الرعاية والتبجيل.

ومنذ اللحظة الأولى يسند الله تعالى مهمة رعاية الغلام وهدايته

وكفايته إليه وحده دون سواه. وبعد أربعين عاماً يرفعه إلى أعلى المقامات ويكرمه بأشرف الكرامات ليصبح الفتى الهاشمي رسول الله وخاتم النبيين. وحين انقطع الوحي يسيراً عنه في مبدأ النبوة، وزعم من كفر بأن ربه قلاه تنزل الوحي الكريم بقسم الرب العظيم مذكراً بلسان المحبة والحفظ: ﴿وَالضُّحَى﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَضَى﴾ ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ (الضحى: ١-٨). وتدنو ساعة التكريم الأعظم في ليلة الإسراء والمعراج بعد عشرة أعوام عطرة من التشريف والكرامة.

موعد قرب زمزم

بعد الخروج من حصار الشعب المجهد الشاق الذي دام ثلاث سنين، فقد النبي ﷺ اثنين من أعز المقربين إليه في أقل من ثلاثة أشهر؛ عمه الرحيم الذي كان يحميه، وزوجته الحنون التي كانت تواسيه. وما هو إلا أن تجرع القلب الكريم مرارة الفراق، واعتصر الفؤاد لألم الوحدة حتى تنزل الأمر الإلهي بإحضاره إلى ملكوت السماء، ليزوق حلالة الوصل في جوار ربه وليرتفع في مقامات العبودية والتشريف. كان الأمر يفوق الخيال غير أنه حقيقة.

لقد سلك هذا الطريق التجاري في شبابه قبل البعثة مراراً، وهو يعلم يقيناً أن رواحل العرب تسير فيه شهراً للوصول إلى الشام، ومثله في الإياب منه إلى مكة. لكن ها هو الآن يرى امتداد الطريق يطوى أمامه كالنهر المتعرج، وذلكم مسجد إيلياء يتراءى أمام بصره. أيعقل هذا؟ لقد قطع المسافة كلها في لمح البصر. ومن جوار المسجد يرتقي به أمين الوحي جبريل ﷺ إلى أعلى متجاوزاً به طبقات الغلاف الجوي، الذي تقطع رواحل الغرب الحديثة الطريق إليه في ساعات رهيبية ومخيفة، وتعود منه كذلك. ها هو يعبر المجرة الشمسية، مخلقاً وراءه السدم والأفلاك الكونية ليصعد إلى هناك، حيث أبعد نقطة عن عالم الأرض تنقله إلى عالم السماء. ومن باب السماء الأولى يتنزل الأمر الإلهي بالسماح به ليرقى في ملكوت السماء الأعلى، متنقلاً بين مراسم الاستقبال العظيم الذي جمع له فيه من كل سماء مقربوها، والتقى بأشرف ساكني السماء من أنبياء الله تعالى ورسله؛ آدم ويحيى وعيسى ويوسف وإدريس وهارون وموسى عليهم السلام. وفي السماء السابعة استقبله أبوه إبراهيم ﷺ وسلم عليه. ثم رقي إلى هناك!



حيث لم تطأ قدم قط ولا خفق جناح، وشاهد من العوالم الباهرة ما يعجز عنها الوصف، ولا يفهما بديع الرصف سوى ما ورد في حديث الرب سبحانه وهو يخبر عما جرى هناك بقوله جل شأنه: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذِ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَعَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ (النجم: ١١-١٨). ثم عاد سيدنا محمد ﷺ من ليلته دون أن يشعر بعودته أحد من أهل مكة.

مقدمات الحدث العظيم

كانت التهيئة الإلهية للجسد الطاهر دقيقة لكي يتحمل ما سيعرض له في هذه الرحلة من عوالم لا طاقة لآدمي بتحملها؛ فبعد صلاة العشاء من تلك الليلة المباركة نزل جبريل عليه السلام بأمر ربه إلى الحبيب المصطفى ﷺ ففرج عن سقف بيته، ثم شق صدره وأجرى له عملية جراحية ربانية لم يفقد فيها قطرة دم شريفة واحدة. غسل خلالها صدره الشريف بماء زمزم، ثم جاء بطشت

من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغه في صدره ثم أطبقه وأعادته من جديد كما كان، بل أحسن مما كان.

بعدها أخذ جبريل عليه السلام بيده ﷺ إلى الخارج ليريه دابته التي ستقله إلى المسجد الأقصى في أرض الشام، قال ﷺ: "أتيت بالبراق؛ دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس" (متفق عليه). وفي أرض النبوات ومنبع الرسالات أظهر الله تعالى فضله على أهل الأرض قاطبة؛ فعند وصوله ربط البراق بالحلقة التي كان يربط فيها الأنبياء، ثم دخل المسجد فصلى فيه ركعتين ثم أتاه جبريل بالمعراج ليصعد فيه فلما استوى عليه صعد به إلى السماء. وقد شهد تلك الليلة بطريق من المقربين لهرقل ملك الروم، وكاد هرقل نفسه أن يسلم بسببها؛ فبعد هذه الليلة المباركة بقرابة عشر سنين قدم دحية الكلبي رضي الله عنه بكتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل. فلما انصرف دحية رضي الله عنه، أمر هرقل بإحضار من بالشام من تجار

مكة، وكان هرقل وافر العقل، فسأل عن أقربهم من محمد ﷺ، وكان أبو سفيان، فقال له: هل جريتم عليه كذباً؟ فاجتهد أبو سفيان أن يحقر من أمره ويصغره عنده فلم يجد ما يسعفه. قال أبو سفيان: حتى ذكرت قوله ليلة أسري به فقلت: أيها الملك، ألا أخبرك خيراً تعرف أنه كذاب؟ قال: وما هو؟ قلت: إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا، أرض الحرم، في ليلة فجاء مسجداً هذا مسجداً إيلياء، ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح. قال: وبطريق إيلياء عند رأس قيصر، فقال بطريق إيلياء: قد علمت تلك الليلة. قال: فنظر إليه هرقل وقال: وما علمك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كان تلك

الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبي، فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرنى لمعالجته فغلبننا فلم نستطع أن نحركه كأنا نزاول به جبلاً، فدعوت إليه النجاجة فنظروا إليه فقالوا: إن هذا سقط عليه النجاف والبنيان، لا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى. قال: فرجعت، وتركت جانبي الباب مفتوحين، فلما أصبحت غدوت عليهما، فإذا الحجر الذي

إِنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ . وَقَدْ
نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ فَاصْطَفَى قَلْبَ
سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْهَا، ثُمَّ حَفِظَ نَسْلَهُ
فِي رَحِمِ الْغَيْبِ وَتَنَقَّلَ بِهِ فِي مَحَاضِنِ
الطَّهْرِ جِئلاً بَعْدَ جِيلٍ . وَمِنْ جَوَارِزِ مَزْمٍ
فِي الْوَادِي الْمُبَارَكِ دَنَتْ سَاعَةُ الرَّحْمَةِ
وَنَبَعَتْ عَيْنُ الْحَيَاةِ فَوَلَدَ الْهَدَى ﷺ ..

في زاوية المسجد مثقوب، وإذا فيه أثر مربوط الدابة، قال: فقلت لأصحابي: ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي، وقد صلى الليلة بمسجدنا.. (مقتبس من الحديث الطويل الذي رواه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب دلائل النبوة). فلما خرج ﷺ من المسجد قدم إليه جبريل إناء من خمر وإناء من لبن ضيافة للزائر العزيز، وطلب منه أن يختار، قال ﷺ: "فاخترت اللبن"، فقال جبريل عليه السلام: أصبت الفطرة، "ثم عرج بي...". (رواه أحمد). وفي السماء أظهر الله تعالى شرفه ورفعته ﷺ، حيث بلغ به مكاناً عالياً لم يصله ملك مقرب ولا نبي مرسل، وبلغه ربه سدرة المنتهى، وهي التي ينتهي إليها ما يعرج به الملائكة من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها، وهناك رأى جبريل عليه السلام مرة أخرى على هيئته التي خلقه الله ﷻ. ثم جاوز به الحد الذي لا يتخطاه جبريل أمين أهل السماء نفسه. وفي تلك البقعة المباركة الشريفة سمع صريف الأقدام،

وفرض الله تعالى عليه وعلى أمته الصلاة، ولم يكن أحد قط أقرب منه ﷺ. ثم هبط إلى بيت المقدس والظلام لا يزال حالكا، ودخل المسجد، قال ﷺ: "فلم ألبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن مؤذن فأقيمت الصلاة، فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمنا؛ فأخذ جبريل عليه السلام فقدمني فضليت بهم. فلما انصرفت قال جبريل: يا محمد أتدري من صلى خلفك؟ قلت: "لا". قال: صلى خلفك كل نبي بعثه الله ﷺ" (رواه أحمد).

وفي هذا دلالة على أنه ﷺ هو الرئيس المقدم والإمام الأعظم لسائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، حيث قدمه جبريل عليه السلام ليكون إماماً لهم في دارهم التي هي معدن النبوات وأرض الرسالات. ثم خرج من بيت المقدس فحل رباط البراق وركبه عائداً إلى مكة.

في طريق العودة

ها هو ذا الكوكب الأخضر يسبح في ملكوت الكون الهائل، وبحار السدم والأفلاك والمجرات تحيط به. وها هي جزيرة العرب يقطع وشاحها المظلم خيوط القمر المنسدلة في هدوء، وذاكم هو الخط الترابي الطويل الذي شهد سماءه أعظم رحلة بشرية على الإطلاق، وعلى البعد ترى قوافل العرب تسير فيه، وأخرى تستريح حوله.

لم تغب عن ذاكرة سيدنا محمد ﷺ مشاعر الحنين في رحلاته الأولى كلما يجمت المطايا وجوها قبل مكة في طريق عودتها من الشام، وكلما رفعت الإبل أعناقها في سيرها الطويل تستشرف جبال مكة من بعيد، شوقاً إلى نسائم البيت وعبق أذاخره، وهي محملة بالبضائع والتحف الشامية النادرة.

غير أن هذه الرحلة الإيمانية -خارج حدود الحجاز، وبعيداً عن كوكب الأرض- كانت الأولى للفتى الهاشمي بعد أن أكرمه الله تعالى بالرسالة. وهي المنطلق الحقيقي الذي انتقلت الدعوة بعده خارج مكة لتعم أرجاء الجزيرة العربية ثم انتشرت بشكل مذهل في غضون سنوات لتعمّر جميع أقطار الأرض.

وعلى الرغم من درجة الظهور والريادة للطريق الذي يربط

بين مكة وبيت المقدس، فقد شهد تاريخ النبوات تقارباً كبيراً كذلك بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى. حتى إن سورة الإسراء ذاتها قرنت بمحدث طويل وجميل عن بني إسرائيل، وفي مطلعها قوله جل شأنه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾ (الإسراء: ١-٢)، بل إن الاسم الآخر لسورة "الإسراء" هو "بنو إسرائيل".

وقبل أن يطبق البراق جناحيه، ويهبط بجوار البيت العتيق ليعود الراكب الكريم إلى فراشه الذي لا يزال ساخناً، كان الرسول ﷺ قد اخترق بروحه وجسده حاجز الزمن في تلك الليلة القمرية؛ وعدلت الساعات القليلة الماضية التي قطعها ملايين السنين الضوئية بمقياس البشر. رأى خلالها من المشاهد والعوالم ما لا قدرة للعقل البشري على إدراكه، وأعاد تاريخ النبوة حياً في القلوب، وقلوب المؤمنين به من أمته الذين يصدقون بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، وبقية قليلة ممن آمن به من أهل الكتاب الذين أمرنا الله سبحانه بالإحسان إليهم، ولين الحديث عند الحوار معهم؛ لأنهم صدقوا بما أنزل

الله تعالى على رسله، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

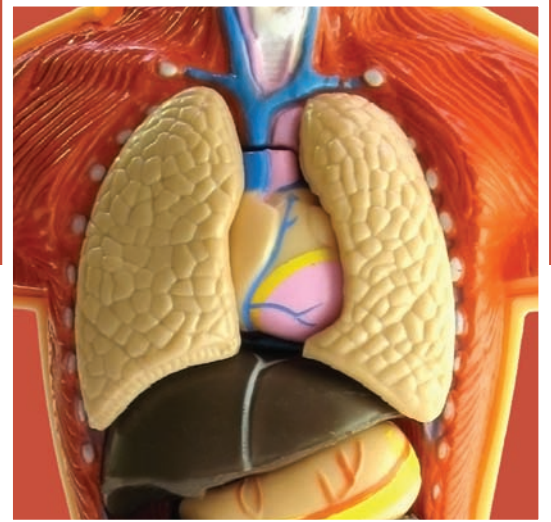
ولا يفوق التقارب بين المسجدين، والطريق الذي يربط بينهما من حيث الظهور والريادة إلا ذلك الترابط الكبير بين سيرة النبي المكي الخاتم من ذرية إسماعيل عليه السلام، وسيرة النبي المقدسي الخاتم من ذرية إسحاق عليه السلام. ■

(٤) مدير تحرير مجلة "مكة" / المملكة العربية السعودية.

عند الأثر الضني لا تتوقف.. وبه لا تظل منبهراً.. فتش عن الروح
العظيم من ورائه.. وعن اليد الصانع التي صاغته.. وعن الرسام الذي
رسم.. والنحات الذي نحت.. والشاعر الذي شعر.. والناسخ الذي نثر.. فضي
روح الإنسان يرقد الجمال كله.. ويعتلج الفن كله..

* * *

أنارئة عبدالله



أ.د. عرفان يلماز*

بعبارة أدق، على شكل منفاخ. كما أني أرتبط من الأعلى
بالقصبية الهوائية والبلعوم، وأنفصل عن الأعضاء الداخلية للبطن
الموضوعة في الأسفل بالحجاب الحاجز العضلي.

التنفس الأول للرئة

إن أول نفس استنشقتُه كان مع اللحظات الأولى لميلادك. ومنذ
تلك اللحظة ما زلتُ أنتفس دون توقف، حتى أثناء نومك فإني
أزودك بالأكسجين الذي تحتاج إليه، وذلك بتلقي الأوامر آلياً من
"البصلة السيسائية" أي، المركز المحرك الوعائي والمركز التنفسي.
إن قريبي في العمل هو القلب الذي بدأ نشاطه قبلي بكثير
حين كنتُ في الشهر الأول في رحم أمك. في تلك الفترة كنتُ
أستريح ولم يكن تكويني قد اكتمل بعد، أي لم تبرز الحاجة إليّ
بعد. إذ كانت أمك -التي تجرح قلبها أحياناً- تزودك بدمها،
بكل احتياجاتك من الغذاء والأكسجين. ولو قمتُ أنا بشيء
من هذا القبيل، لأحتنقُ على الفور، لأنك كنتُ تسبح في مادة
سائلة في رحم أمك، ولو حاولتُ التنفس لامتألتُ بهذا السائل
واحتنقنا سوية.

إن أول نفس أستنشقه عند الولادة مهم جداً وإنه صعب
لغاية، لأن القصبية الهوائية عندك تكون أضيق بكثير من حالتها

ع
عزيزي عبد الله... أسند ظهرك للخلف ودعني
أمط جسمي قليلاً لأتسع وأملأ جوفي بالهواء.
فكلما امتألتُ بالهواء فإن دماغك سيعمل أحسن،
ومن ثم ستعي كلامي بشكل أفضل. وإن سألتني عن العلاقة
بينهما أقول، بأن كل عضو في جسمك له علاقة بكل شيء،
بل بكل الكائنات. فلكي يعمل دماغك ستحتاج إلى السكر،
ولكي تؤمن الطاقة للخلايا العصبية تحتاج إلى حرق السكر،
ولحرق السكر تحتاج إلى أكسجين، والعضو الذي يؤمن دخول
الأكسجين هو أنا (الرئة) وسأتحدث لك عن نفسي في هذا العدد.
في الحقيقة إن الحديث عن النفس أمر ليس محموداً، ولكن
ما أفعله لا يعد حديثاً عن النفس. فكل ما أبغيه هو الحديث عنه
بإيجاز وبيان جمال قدرته في إبداعي على أكمل وجه. لذا لا يوجد
في جنباتي أي موضع للتكبر أو الاغترار، فكل شيء له مكانه، كل
ما أملكه وكل ما أقوم به وكل ما عليّ من التفاصيل والدقائق
والصناعة البديعة التي لا تحيطونها علماً، كلها له جلّت قدرته.
ولكي تواصل حياتك فإن الله يحبك قد وظفني في أعمال ووضعي
في بدنك العجيب.

لقد أودعني الله في قفص صدرك الذي أحيط بأضلاعك
وعضلات صدرك على شكل كيسين هوائيين أيمن وأيسر، أو

كذلك؟ ماذا أفعل؟ وهل يمكن أن أصاب بالسرطان بإرادتي؟ فكما أن هذا المرض المسمى بالسرطان يمكن أن يصيب أي عضو في أي لحظة، فإنه يمكن أن يصيبني أنا أيضاً أكثر من غيري، لأني على تماس مباشر بالهواء دائماً. فلو أني توقفت عن استنشاق الهواء للفظت أنفاسك الأخيرة على الفور. ولهذا ينبغي عليك أن تنتبه إلى نظافة الهواء في محيطك.

في الحقيقة أن باطن المجاري الهوائية التي تنقل الهواء إلى داخلي والتي تسمونها القصبة الهوائية والشعبيات الهوائية، بطن بشعيرات تلتقط وتدفع ذرات الغبار والمفرزات المخاطية نحو الحلق لكي يخرج بعد ذلك بواسطة السعال، حيث تعمل هذه الشعيرات طوال الليل أثناء نومك، وتدفع الأغشية المخاطية التي التصقت بها ذرات الغبار والتي استنشقتها نهاراً نحو حلقك، وتقوم في الصباح بطرح كتلة الغشاء المخاطي الموجودة في حنجرتك وتتخلص من البلغم. أما المدخنون فيقتلون ما بين ٨٠٠-١٠٠٠ خلية من شعيرات الرئوية في كل مرة يسحبون فيها الدخان إلى جوفي. وبعد مدة أعجز عن تكتيس جزيئات المواد السامة الواردة مع الهواء، كذرات الكربون، والكبريت، والرصاص... ذلك لأن خلايا الأهداب أو شعيرات الرئوية داخل القصبة الهوائية، تموت مع مرور الأيام وتصل إلى حالة لا تحتمل فتغير هيكلها وتكونينها. ومن ثم فإن ذرات الغبار الموجودة داخل الهواء الملوثة، تسد مجرى الهواء كما تسد مجاري المدافئ ووصلات المدخن في منازلنا. ولعلي أصاب نتيجة ذلك بمرض الانسداد الرئوي المزمن أو السرطان. عزيزي عبد الله... أعرف أنك لا تدخن، ولكنني أردت أن ألمس جوانب الموضوع لتقوم بشرحه لبعض أصدقائك، فأرجو ألا تملّ مني.

التكوين المتكامل البديع

وفي هذا الصدد أودّ أن أشرح لك بعض البدائع الفنية في تكويني المتكامل البديع. كما تعرف أنه إذا اجتمعت العناصر الفنية والجمالية والوظيفية في أثر ما، فإنها تعطيه ميزة ذات معنى. وإن تكويني المتكامل - ككل أصدقائي العاملين في بدنك - يهدف إلى التلاؤم مع الوظيفة المهمة التي سأقوم بها. بتعبير آخر، فإنه يستحيل اجتماع الخلايا والجزيئات في عن طريق الصدفة، فإنه يستحيل إيجاد جزيئة واحدة من جزيئات البروتينات المختلفة الداخلة في تركيبتي من تلقاء نفسها ودون إدراك. إن الاحتفاظ بالضغط العالي لأوكسجين الهواء الداخل إلى جوفي، ونفاذ الأكسجين من غشائي أثناء الانتشار، ثم النفاذ من أغشية الشعيرات الدموية

الاعتيادية، إلا أن عدد الحويصلات الرئوية التي يتم خلالها تبادل الأكسجين مع شعيراتك الدموية كثيرة جداً بالنسبة إلى حجمي، وهذا ما يعوّض ضيق القصبة الهوائية عندي. عند أول حركة لي، وبعد أن يمتلئ جوفي بالهواء، أقوم بالضغط على الشرايين والأوردة القادمة إلي من القلب، في حين يبقى شرياني المرتبط مباشرة بالشريان الأهر خارج نطاق العمل، كما ينغلق الصمام بين الأذنين وينفصل عن دورة الأم. وإذا ما بقي الصمام مفتوحاً دون انغلاق، فإن الدم المؤكسج يختلط بالدم الفقير بالأكسجين ويسبب "المرض الأزرق" أو الزرقة القلبية، حيث يرجع لون الطفل الأزرق إلى أن الدم الأزرق لا يجد مفرأً من أن يتجه إلى البطن الأيسر، والشريان الأورطي (الأهر) ويختلط بدمهما الأحمر، ويوزع هذا الدم المزوج إلى الجسم فيعطيه اللون الأزرق.

وتظهر الزرقة الناتجة عن نقصان الأوكسجين في الأنسجة على المدخنين أيضاً. ولا شك أن أكبر عدو لي هو التبغ الذي يحتوي على مئات المواد السامة والضارة. ومن إحدى هذه المواد "مونوكسيد الكربون" أو استنشاق متوجات غازية تتحد مع مادة الهيموغلوبين (خضاب الدم) وتعيق انتشار الأوكسجين في الجسم. ولهذا فإن شفتي المدخنين تبدو مائلة إلى الزرقة. والحق يقال عجزنا - رغم محاولتنا الكثيفة - عن مقاومة تلوث الهواء الذي بدأ يزداد بسرعة في عصرنا هذا، فإذا بنا نراهم (المدخنين) قد زادوا الطين بلة بتدخينهم، الأمر الذي يجعلني أجن. كيف يمكن لإنسان أن يكون جاهلاً لهذه الدرجة!

آليات حماية الرئة

لقد خلقي ربي ﷻ بطريقة مميزة وفريدة لاستنشاق الهواء وإدخاله إلى الدم بواسطة الضغط العالي، ثم طرح فضلات غاز ثاني أكسيد الكربون الموجود في الدم إلى الخارج قبل أن يرتفع إلى مستوى يؤدي إلى احتراق الجسم. ولأنه ﷻ يعلم أن الهواء سيتلوث إلى هذه الدرجة، فقد زودني ببعض الآليات لحماية نفسي. ونتيجة لذلك فإني أمارس عملي دون أي عطل لمدة طويلة. إلا أن ازدياد المواد الصناعية السامة والغازات بشكل كبير، جعلني لا أقدر على مقاومة الأخطار بسهولة. ثم إنهم ينفثون في وجهي دخان التبغ الذي قيل: إن فيه أكثر من أربعة آلاف مادة سامة ومختلفة.

إنهم أدرى بأنفسهم.. فلو أني فقدت المقاومة وضعفت عنها، لا أدري كم سأفزع عليهم من أبواب المشاكل. كثيراً ما كنت أصاب في الماضي بمرض السل، أما اليوم فإني أفضل الإصابة بمرض السرطان تماشياً مع الموضة!.. وكأن في الأمر دعاية أليس



تنفس أنفك سالكاً، فيقطران فيه المصل الفيزيولوجي لئلا ينسد. وأعتقد الآن أنك عرفتَ سبب سهولة مرض الأطفال الذين ينامون وفهمهم مفتوح بسبب وجود الزوائد اللحمية في أنفهم. عمّ كنا نتحدث وكيف خضنا هذه المواضيع؟ نعم.. نعم. تذكرتُ، كنت أتحدث عن طرق الهواء الوارد إليّ.

الإنذار المبكر

إن أطراف القصبة الهوائية التي تُوصِل الهواء إلي - كما هو الحال تماماً في المدخنة - تتكوّن من ١٦-٢٠ حلقة غضروفية على شكل أنبوب أسطواني. ولثلاث تظهر مشكلة بسبب وجود البلعوم والقصبة الهوائية جنباً إلى جنب، فإن آخر حلقة من الحلقات الغضروفية المبنية على بعضها البعض، أكملت بحلقة نسيجية مرنة بدل الغضروف القاسي. ومن ثم فإن غضاريف القصبة الهوائية لن تعيق ابتلاع اللقيمات أثناء الطعام، إذ توجد فوق وبجوار الحلقات الغضروفية ألياف عضلية، حيث توسع أثناء شهيق القصبات الهوائية بتمدد الحلقات الغضروفية وتضيّقها.

مرت عليك أوقاتٌ نَهَيْتُك فيها عن طريق السعال. ربما أزعجتك بذلك، ولكن لو أنني لم أضيق قُطر القصبة الهوائية وأقلص أحزمتي العضلية حتى تصل إلى ما تحت السُدس، ولم أَسْرِع بالتنفس من خلال القصبة الهوائية الضيقة هذه، لما استطعت لا أستطيع طرح بعض الأجسام الغريبة التي تدخل جوفي فجأة (كذرات الغبار وبعض القطع الصغيرة)، عندها ينسد جوفي ويؤدي ذلك إلى انعدام الهواء وبالتالي إلى موتك في آن واحد. ولهذا السبب فإن الانفجار السريع الذي تسمونه السعال، يعني التخلص من ذرات الغبار الضارة في داخلي. وقد وضع ربي ﷻ جهازاً صوتياً في الطرف الأمامي لقصبي الهوائية العريضة جداً والتي تشبه الطريق السريع، وهو جهاز رائع مذهل! ولو قمْتُ بالحديث عنه لما كفتني الصفحات. فالهواء الوارد إلي والهواء الفاسد الصادر عني، يحرك الحبال الصوتية عندما يمر من خلال هذا الصندوق الصوتي، ويصدر النغمات الجميلة والأنشيد الرائعة والأحاديث التي تبهج الحياة.

الشعبة الهوائية

إن الهواء الوارد من القصبة الهوائية ينقسم إلى فرعين هما الشعبتان الهوائيتان التوأمتان يعني ويسرى. وفي الأصل لا نُعتبر توأماً، لأنّ التي تقيم في الطرف الأيمن تتكون من ثلاث قطع، أما التي تقيم في الطرف الأيسر فتتكون من قطعتين. وكأني أسمع سؤالك،

العالقة والامتزاج مع جزيئات خضاب الدم، ونفاذ ثاني أكسيد الكربون ذي الضغط العالي إلى جوفي من نفس الأغشية، وقيامه بطرحه إلى الخارج مع كل زفير وشهيق لك أمر لا يمكن أن يتحقق بسهولة. إنك تتنفس ١٣-١٤ مرة في الدقيقة، وفي كل مرة تتحقق هذه العملية. يجب عليّ عند الانتفاخ والانكماش أثناء الشهيق الذي تجريه غالباً دون إدراك، أن أكون في حالة مرنة جداً. وإن أهم خاصية أمتلكها - بالإضافة إلى هذه المرونة - هي إظهار أوسع سطح في أصغر حجم. إن الله ﷻ وضع في صدرك الضيق أغشية تقارب مساحتها ١٠٠ متر مربع، أو يقارب خمسين ضعفاً من جلدك الذي يلف جسمك، وبفضل هذا منحك مساحة واسعة تتيح انتشار الغازات. في حين ينبغي على الغازات هذه، من أجل النفاذ من أغشية الجهاز التنفسي، أن تبقى رطبة على الدوام ولا تجف أبداً. إن سطوح أغشية الجهاز التنفسي الرطبة، ممتازة جداً لانتشار الغازات؛ ولكي لا تلتصق الأغشية الرقيقة ببعضها، ولكي لا يتعرض الجهاز التنفسي للخطر بسبب التوتر السطحي والخاصية الشعرية، يفرز إلى داخلي مادة سائلة تحتوي على مواد سطحية. ولو لم تكن هذه المادة السائلة لالتصقت الأغشية الرقيقة ببعضها ولفشلت عملية الانتشار.

القصبة الهوائية

إن الهواء الداخل إلى جوفي مثل الطرق الثانوية المتفرعة عن الطريق السريع، فهي تضيق وتتفرع وتنتهي بحجيرات مغلقة - تسمى الحويصلات - فتكوّن بذلك شبكة. وإن الهواء الداخل من الفم والأنف يلتقي في الطريق السريع المسمى القصبة الهوائية، حيث يبلغ طول القصبة الهوائية في الشخص العادي حوالي ١٥ سم. وأودّ ها هنا أن أقول لك شيئاً مهماً بخصوص عمل خاطئ تقوم به في كثير من الأحيان، وكان الأولى أن يتكلم عنه العضو الذي تسمونه الأنف. إلا أنني سأتطرق للموضوع بشكل طفيف لعلاقته بي. إنك يا عبد الله كثيراً ما تخطئ في طريقة التنفس، إذ عليك أن تستنشق الهواء من الأنف وتطرحه من الفم، عندها سيسخن الهواء الوارد من أنفك مباشرة ويترطب، ومن ثم ستتخلص من ذرات الغبار فيه. إذا فعلتَ هذا فإنك لا تعرّضني للضيق ولا تصاب بالزكام أو بالتهابات الجهاز التنفسي العلوي. أما إذا استنشقتَ الهواء البارد والجاف من فمك، فإن ذرات الغبار والجراثيم ستدخل جوفي وستسبب الحساسية، بل قد يصل الأمر إلى الالتهاب الرئوي.

كان أبوك وأمك حين كنت صغيراً يحافظان على بقاء مجرى



الحاجز أتوسع في المكان الذي فسخ لي من خلال انتفاخي. عملء جوفي بالهواء. إن وجودي معلق في الفراغ الصدري ويتحقق من خلال القصبة الهوائية التابعة لي والشرابين والأوردة.

إن احتمال إصابتي بالأمراض عال جداً نظراً لارتباطي بالعالم الخارجي. ويأتي السعال على رأس القائمة التي أرسل فيها إشارة تحذيرية لإصابتي بالمرض. فأحياناً أُخرج بلغمًا مختلطاً بالدم، إضافة إلى أنني أحد صعوبة في التنفس، وأشعر بآلم في صدري. عندما ترى هذه الإشارات التحذيرية، ينبغي عليك أن تكون يقظاً جداً، لأن البكتيريا والجراثيم إذا ثبتت أقدامها في داخلي، فإنها تتكاثر في الحويصلات الهوائية وتتصلب وتسبب التهابات.

إنني حساسة جداً تجاه الإضرابات التحسسية، فعندما تتلامس جدران العضلات المستوية المتوضعة على جدار الشعبة الهوائية بالمواد الغريبة كغبار الطلع فإنها تقلص بتأثير إفرازات الهيستامين. إضافة إلى أن الأمراض التحسسية التي تصيب العروق الدموية، تؤثر عليّ جداً لكوني عضواً من أكثر الأعضاء الحاملة للدم. كما تظهر حالة القوة التنفسية عند تقلص عضلات الشعبة الرئوية وعدم إخراج الإفرازات المخاطية التي أفرزها ضد الحساسية، وإنكم تسمونها بمرض الربو. فعندما يمتلئ داخلي بهذه الإفرازات المخاطية التي أصدرها لحماية نفسي ولا أستطيع إخراجها، أعاني صعوبة في التنفس.

ومعزل عن هذا، فإنني كثيراً ما أصاب بالأمراض الحادة المزمنة والتهاب الشعب الهوائية وانتفاخ الرئة، حتى إن عصبتيك وانفعاكك يؤثر عليّ، إذ أعاني صعوبة في التنفس مباشرة.

لا تؤاخذني يا عبد الله! فمساحتي ضيقة جداً، إذ لا يمكن أن أختصر الحديث عن عمل في مذهب مثلي في أربع صفحات أو خمس. ولهذا أحيل الباقي إليك، ففي فهمك كفاية. لكن يا قرة عيني، ابتعد عن أماكن التدخين والغازات السامة وأدخنة السيارات. استنشق الهواء بعمق في الأماكن النظيفة وأرسل إليّ أوكسجيناً كثيفاً، ثم فكر بتمعن في كل شهقة بصوت "هو" الذي أصدره وأذكر به خالقنا، وتذكر أنني يمكن أن أتوقف في أي لحظة، فاشكر ربنا العظيم الذي لا نهاية لقدرته. ■

وما الحكمة من ذلك؟ أستطيع أن نقول لك: إن شقيقي الشعبة اليسرى خلقت لتتيح مجالاً للقلب وليتخذ مكاناً أوسع ويعمل براحة أكثر، بالإضافة إلى أنه عندما يبدأ السرطان في أي قسم، فيمكن إزالة القسم المصاب فقط بعملية جراحية وبالتالي أستطيع أن أواصل حياتي. وربما هناك حكم كثيرة لا يعلمها إلا ربي سبحانه. وتنقسم الشعبتان الهوائيتان اللتان تدخلان إلى جوفنا إلى ٨-١٠ طرق فرعية دقيقة - كما هو الحال في الطرق السريعة - وكل واحدة من هذه تنقسم إلى فروع أكثر دقة بقطر واحد سم. إن نظام التفرع هذا يشبه منظر شجرة رأسها نحو الأسفل. أما في نهاية هذه الفروع الدقيقة فتوجد شعبيات النظام التنفسي التي تشبه عنقود العنب.

الشعيرات الدموية

وإن آخر نقطة في الطريق هي الكريات التي تشبه الحبات التي تكون العناقيد، إذ هي الأجزاء الحياتية الأساسية. كما أن هذه الكريات الصغيرة التي تسمى الحويصلات صنعت من أغشية رقيقة جداً أحيطت بشبكة الشعيرات الدموية. قسّم الوظيفي الأساسي الذي يتم فيه تبادل الغازات موجود هنا. وإن شبكة الشعيرات الدموية التي تلف الحويصلات الرئوية، هي أقسام متفرعة عن شرياني الحامل الدم الفاسد والقادم من القلب (فقر الأوكسجين) وشرياني الذي يجمع الدم النظيف من (غني الأوكسجين) ويوصله إلى القلب.

توجد طبقتان غشائيتان رقيقتان تحيطان بي وتحمياني؛ إحدى هاتين الطبقتين ملتصقة بي تماماً، والأخرى ملتصقة بالأضلاع الصدرية، وبينهما في الكيس الفراغي مادة سائلة لزجة رقيقة جداً. وأثناء انتفاخي وانكماشتي تمنع هذه المادة السائلة اللزجة احتمال كشطي عند احتكاكي بفراغ جدران القفص الصدري. ولولا هذه المادة السائلة لكشط سطحي وانفتح في ثقب بعد مدة قصيرة جداً. ينبغي على فراغ القفص الصدري أن يتوسع ليفسح لي مجالاً أثناء انتفاخي عند التنفس. فلو لم أجد مكاناً أتسع فيه لما استطعتُ التنفس، ولت أنت بسرعة. فالشكر للخالق عز وجل الذي صنع قفصاً من الأضلاع لحمايتي، والذي صنع مفاصل مرنة جزئياً لتتوي على الأضلاع، وبالتالي يتوسع فراغ القفص جزئياً ويفسح لي مكاناً. إضافة إلى أن الحجاب الحاجز العضلي الذي يفصلني عن المعدة والأمعاء، يقلل انحناءه ويضغط على الأعضاء الموجودة في البطن نحو الأسفل، مما ينفخ جدار البطن نحو الخارج ويفسح لي مكاناً لأنزل فيه. وبفضل حركة الأضلاع والحجاب

(٥) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: محمد ماهر قفص.

محاوَر أساسية في فهم القرآن



أ.د. علي جمعة*

هـ

هناك أساس مهم من أسس تفسير القرآن وهو "أن القرآن يبين بعضه بعضاً". ولذا فأول ما ينبغي أن يعتني به المفسر هو أن يجمع المتشابهات ويقرن بعضها ببعض. فرب معنى أجمله القرآن في موضع وفصله في موضع آخر، أو أطلق في موضع وقيد في موضع آخر. ثم إن القرآن ربما تعرض للمعنى الواحد في غير موضع لحكم عالية اقتضت تخصيص كل موضع بالقدر الذي أورد فيه. فإذا ما جمع المفسر كل مواضع وروده تجلّى له الهيكل العام الذي أراده القرآن في تلك القضية.

القرآن كله كالسورة الواحدة

وقد علّم رسول الله ﷺ أصحابه ذلك المنهج في فهم القرآن في عدة مواقف. فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام: ٨٢)، شق ذلك على الناس، قالوا يا رسول الله، وأينا لم يظلم نفسه؟! فقال: "إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣) إنما هو الشرك" (رواه البخاري). فقد أطلق لفظ الظلم في موضع فشاع في المعنى المعهود في الظلم في عرف الخطاب، بينما هو مفسر في موضع آخر بالشرك. والذي يجعل الموضع الآخر متعينا للبيان هو الفهم العالي لقواعد الشريعة وكتلياتها، ومنهجها في تحديد أسباب النجاة وأسباب الهلاك، مما يعين على إلحاق الآيات بعضها ببعض. وما زال هذا المعنى بهم حتى صرحوا بأن القرآن كله كالسورة الواحدة يحمل بعضه على بعض، قال الإمام الرازي في التفسير الكبير: "لأن القرآن كله كالسورة الواحدة، وكالآية الواحدة يصدق بعضها بعضاً، ويبين بعضها



معنى بعض، ألا ترى أن الآيات الدالة على الوعيد مطلقة، ثم إنها متعلقة بآيات التوبة وبآيات العفو".

وللعلامة الطاهر بن عاشور تحرير جيد في هذا المعنى يمثل ضابطاً مهماً يجب تأمله في قضية حمل بعض القرآن على بعض، حيث قال في التحرير والتنوير: "وهذا كلام لا يحسن إطلاقه، لأن القرآن قد يحمل بعض آياته على بعض، وقد يستقل بعضها عن بعض، إذ ليس يتعين أن يكون المعنى المقصود في بعض الآيات مقصوداً في جميع نظائرها، بل ما يقارب غرضها".

وقد ألف ابن الجوزي كتاباً فيما أجمل في القرآن في موضع وفسر في موضع آخر منه، ونبه ابن تيمية على هذا المعنى في أصول التفسير، وكذا ابن كثير في أوائل تفسيره، وكلامه مأخوذ من كلام ابن تيمية، ثم السيوطي في الإتيان وغيرهم كثير.

وهو قريب مما عرف عند المتأخرين بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم وقد كتب فيه كثيرون.

السنة النبوية أول بيان للقرآن الكريم

وأساس آخر مهم من أسس التفسير وهو "أن السنة النبوية ثاني الوحيين، وأما نابعة من القرآن وموضحة لمعانيه". فهي أول بيان للقرآن الكريم، وهو بيان يمتاز بالعصمة. فإنه أول كاشف دقيق منضبط ومحفوظ يكشف عن معاني القرآن، ولأنه معصوم وحنة فإنه مكمل للهدى القرآني، بحيث يتكون منهما معا توجه الشرع الشريف في كل مسألة أو قضية، بل قال الإمام السيوطي رحمه الله في "الإتيان": "وقال الإمام الشافعي رحمه الله: جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن"، وقال أيضاً: جميع ما حكم به النبي ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قلت: ويؤيد هذا قوله ﷺ: "إني لا أحل إلا ما أحل الله، ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه" (أخرجه بهذا اللفظ الشافعي في الأم).

قال الشيخ طاهر الجزائري في "توجيه النظر إلى أصول الأثر": "قال بعض علماء الأصول: ما قال النبي ﷺ من شيء فهو في القرآن أو فيه أصله قرب أو بعد، فهمه من فهمه، وعَمَهُ عنه من عمه، وكذا كل ما حكم به، أو قضى به، وإنما يدرك الطالب من

ذلك بقدر اجتهاده وبذل وسعه ومقدار فهمه، وقال سعيد بن جبير: ما بلغني حديث عن رسول الله ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله".

وقد أدى ذلك كما هو معلوم إلى أن أنشأ المسلمون منظومات كاملة من العلوم الخادمة للبيان النبوي. فنشأت علوم الحديث وعلوم الجرح والتعديل، وأثمرت ذلك النتاج العلمي الفائق الذي لم تعرف أمة من الأمم له مثيلاً. وقد نشط الحفاظ لإفراد المؤلفات لما يتعلق بالبيان النبوي القرآني فنشأ ما يعرف بالتفسير بالمأثور، وجمع فيه الحفاظ السيوطي جمهرته الضخمة "الدر المنثور، في التفسير بالمأثور" فاستوعب فيها من مصادر واسعة جداً كل حديث أو أثر له وجه تعلق بآية من كتاب الله. ومن المتأخرين جمع العلامة المحدث السيد عبد الله بن الصديق الغماري كتاباً في التفسير بالأحاديث المرفوعة وصل فيه إلى سورة هود.

ولذا فعلى المفسر أن يطلع على ما ورد في كل آية من الأحاديث والآثار، فما كان منها مرفوعاً إلى النبي ﷺ حقيقة أو حكماً فقد وجب الوقوف عنده واعتباره، وما سوى ذلك فليتأمل. فإن كل واحد من المفسرين كان يحمل معنى الآية على جملة المعارف والعلوم التي انتهى إليه عصره، وأحاط به زمانه، ثم القرآن أكبر من ذلك، وهو مجرد عن الزمان والمكان لا يتقيد بهما ولا بأحوالهما.

علم أصول الفقه

وأساس آخر مهم من أسس التفسير هو "علم أصول الفقه اشتمل على ضوابط فهم النص وتحليله". ولذا فقد وجب على المفسر وذلك لأن أعظم مقاصد المفسر أن يلم بالأدوات والآليات التي يتمكن بها من تحليل التركيب وتفكيك النص وفهمه.

وخدمة النص تحليلاً وتفكيكاً وإحاطة بأجزائه ووكلياته، وسيراً للدلالة ألفاظه وتراكيبه، وتوصلاً إلى أغراضه ومقاصده، وتقنيماً لأساليب ومسالك الاستنباط منه، هدف يسعى إليه المفسر ويسعى إليه الأصولي على حد سواء.





فقد قال علماء الأصول: "الاستعمال من صفة المتكلم، والحمل من صفة المخاطب، والوضع قبلهما". والمقصود أن حمل الكلام على معانيه وتأويله على أوضاعه اللغوية من صفات المتلقي أو المستمع. والمقصود أيضاً أن المستمع هو الذي يتلقى الكلام فيقوم بمهمة تحليله واستخراج مضامينه والتغلغل فيه للوصول إلى المقاصد التي حملها المتكلم عليه. وكل ذلك محكوم بالوضع اللغوي الضابط لعملية استعمال الكلام. والذي يؤمن بإيجاد مشترك بين المتكلم والسامع، يتم من خلاله تبادل المعاني، ذلك التبادل الذي على أساسه نخض المجتمع البشري وتراكت المعارف وسرت بين البشر فنمت الحضارة.

وهذه العملية التي يحكمها الوضع متوقفة عند تنزيل كل لفظ على معناه أو معانيه التي ركب بإزائها منذ أن تم الوضع اللغوي واستقر، بحيث لم يعد من الممكن التلاعب بتلك الدلالة أو تغييرها، إلا بمقدار مأمون ومنضبط من تحريك دلالة اللفظ بحيث ينتقل الذهن من المعنى الأصلي الذي وضع له اللفظ إلى لازم له، أو جزء من مدلوله أو ما أشبه.

وهذا يعني أن لكل مستمع حظاً من فهم التركيب، بحيث كلما اتسعت معرفته وازدادت خلفياته وامتد تصوره إلى معانٍ أوسع، رأى أن التركيب يحتملها ويؤمئ إليها. ولا يكاد أن يقع هذا في كل البشر إلا نادراً لاستواء البشر في المعارف أو تقاربهم فيها. وهم في ذلك محكومون بمعطيات زمانهم، بحيث لا يخطر لأحدهم ما سوف يكشفه الزمن من الأمور بعد زمنه، ليضمن كلامه إشارة إليه. فإن وجد بشري نابه، أو عبقرٍ فذ وعرف بطريق ما شيئاً من الأمور المستقبلية وأشار في كلامه إليه، ثم جاءت الأحداث موافقة له اعتبر الناس هذا ظاهرة خارقة تستحق الدراسة كما وقع مثلاً حول "تنبؤات نوستراداموس"، وشأنها معروف. فكيف بالعلم الإلهي الشامل المحيط الذي لا تخفى عليه خافية، وهو سبحانه الذي قدر لكل زمن ما يقع فيه من أحداث ويستجد

وقد عني الأصوليون بهذه القضايا وحرروها ودققوا فيها تدقيقاً زائداً، وخلصوا كل المقدمات التي يتوقف عليها تحقيق أغراضهم تلك من العلوم الأخرى مع استقراء زائد يليق بمقصودهم حتى استوى علم الأصول ونضجت فيه تلك البحوث، وبلغت حداً متقدماً جداً من التحرير والانضباط. حتى إنهم لخصوا بحثاً من علوم اللغة، ومن علم النحو، ومن علوم البلاغة وغيرها وجعلوها أبواباً في علم الأصول.

فلا يليق لأحد أن يُقدم على تفسير كتاب الله تعالى من دون نظر سابق، وتمرر فائق بعلم الأصول. قال العلامة الطاهر بن عاشور في "التحرير والتنوير": "وأما أصول الفقه فلم يكونوا يعدونه من مادة التفسير، ولكنهم يذكرون أحكام الأوامر والنواهي والعموم، وهي من أصول الفقه، فتحصل أن بعضه يكون مادة للتفسير، وذلك من جهتين؛ إحداها: أن علم الأصول قد أودعت فيه مسائل كثيرة هي من طرق استعمال كلام العرب، وفهم موارد اللغة، أهمل التنبيه عليها علماء العربية، مثل مسائل الفحوى ومفهوم المخالفة. وقد عد الغزالي علم الأصول من جملة العلوم التي تتعلق بالقرآن وبأحكامه، فلا جرم أن يكون مادة للتفسير. أما الجهة الثانية؛ فهو أن علم الأصول يضبط قواعد الاستنباط ويفصح عنها، فهو آلة للمفسر في استنباط المعاني الشرعية من آياتها".

وربما كان الأمر أكبر من ذلك، حيث يستفيد الناظر في فن الأصول نسفاً كلياً للتفكير يرث من خلاله أصولاً كبرى للنظر، ويلتفت ذهنه إلى قضية القطعية والظنية وأثرها في الفهم، وإلى أبواب التعارض والترجيح وكيف يسلك فيها، وإلى الاستدلال وكيفية استخراج جهة الدلالة من النصوص إلى غير ذلك من أساليب الفهم. ولا تخفى أهمية ذلك لمن يتصدى للإبانة عن معاني كلام الحق جل شأنه.

اتساع مدلولات التركيب

وأساس آخر لا يقل أهمية عما سبقه وهو "اتساع مدلولات التراكيب بحسب اتساع الأسقف المعرفية، والتراكيب الحضارية".



فيه من علوم ومعارف، فإنه سبحانه ضمّن كلامه إشارة إلى ذلك كله، بحيث كلما استجد شيء لاحت دلالة النص إليه. فالقرآن الكريم نصٌ جاءت ألفاظه وتراكيبه من عند الله بحيث لا تتناقض مدلولاته مع أي سقف معرفي يأتي به زمن، وليس ذلك في طوق بشر، بل كلما تدخلت الأهواء البشرية في الكتب السماوية، فإنها بتصوراتها القاصرة التي لا تحيط بمستجدات الأمور في الأزمان المقبلة تقيد طلاقة النص وإطلاقه، وتجعل أحدث الأزمان تناقضه وتضطدم به. ولذا صان الله القرآن وحفظه، ولذا اصطدمت نصوص الكتب السماوية المحرفة بالواقع حتى أحدثت مشكلة العلم والدين في أوروبا. وقد تناول هذا المعنى "موريس بوكاي" في كتابه "القرآن والتوراة والإنجيل في ضوء العلم الحديث".

والمقصود أن البشر كلما ارتفعت معارفهم واستحدثت عندهم علوم ومعطيات، وجدوا أن النص القرآني متسق مع تلك المعطيات، بينما يسقط كلام أي بشري عن مواكبة الزمن، لقصور تصور قائله وعدم إحاطته عند صياغة كلامه، وكلما كان قارئ القرآن أوسع إحاطة بالعلوم والأفكار والمناهج المختلفة، اتسعت دلالة القرآن في نظره على نحو معجز. ولذا يظل القرآن متجددا عبر العصور لا تنتهي عجائبه ولا ينضب معينه، بل يزداد ثراء كلما ارتقى البشر في سلم الحضارة والمعرفة. قال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: "وأما النوع الثاني من إعجازه العلمي فهو ينقسم إلى قسمين، قسم يكفي لإدراكه فهمه وسمعه، وقسم يحتاج إدراك وجه إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم، فينبلج للناس شيئا فشيئا انبلاج أضواء الفجر، على حسب مبالغ الفهم وتطورات العلوم".

مسالك القرآن في التأثير على النفس

وأساس مهم من أسس التفسير وهو "مسالك القرآن في التأثير على النفس وأثر ذلك في فهم النص القرآني وتحليله، ووجوب تحصيل آليات ذلك". وهو أصل إن غاب عن الناس كلهم فينبغي ألا يغيب عن المفسر. وهو الذي ينقب عن مقاصد القرآن ومراميها ومدلولات الإيحاءات والمؤثرات التي يستجلبها القرآن ويوظفها في إثارة النفوس وتحريكها، وحملها على النهوض والنشاط والمسارة إلى ما يريد أو الحساسية والتوجس والفرق مما لا يريد. ولنعلم أن هذا الأصل متوقف على محورين؛ الأول: علوم البلاغة، وهي المعنية بأسرار التركيب اللغوي، والمعاني الكامنة وراء كل تحوير وتغيير في التراكيب، وما يترتب على كل احتمال

منها من المعاني المستفادة. الثاني: هو علم النفس، لأنه هو المعني بالبحث في طبيعة النفس البشرية وكيفية صدور الأفعال منها وكيفية استجابتها للمؤثرات المختلفة.

والقرآن الكريم جاء بتصور كامل للنفس البشرية وطبيعتها وأطوارها، وقد سار في تطبيقاته العملية وفي سرده لمقاصده وفي نسجه لكلماته وآياته وفق منهج رباني راق في التعامل مع النفس والتأثير فيها، بحيث إن المفسر إن ألمّ بأطراف من ذلك واتسعت معرفته بهذه المعاني صار يرى وراء كل كلمة وكل تعبير وكل تركيب قرآني تأثيرا نفسيا مقصودا.

قال الإمام الخطابي في "بيان إعجاز القرآن": "في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا شاذ من أحادهم، وذلك صنيعة بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منشورا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه، عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتفزع له القلوب، يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة".

قصص الأنبياء مناقشة لأصول المناهج الفكرية

وأساس آخر مهم من أسس تفسير القرآن الكريم وهو أن "قصص الأنبياء مناقشة لأصول المناهج الفكرية التي يدور حولها الفكر الإنساني عبر الزمان". فقد جاءت قصص الأنبياء لمقاصد ربانية متعددة، منها تثبيت فؤاد النبي ﷺ ومن ثم تثبيت أفئدة ورثته وحملة موارث النبوة وأنوار الهداية من بعده، إلى الخلق من العلماء الهداة والدعاة إلى الله على بصيرة بحق، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (هود: ١٢٠).

ومنها أنما موضع نظر وتأمل لأصحاب الفكر، وأهل العقول المستنيرة بحق يقول ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (يوسف: ١١١). فقول "عبرة" معناه أن قصص الأنبياء محل نظر واسع، بحيث تستخرج منها فوائد كبرى، وقد توسع العلامة الطاهر بن عاشور -رحمه الله- في المقدمة السابعة من مقدمات "التحرير والتنوير"، في ذكر فوائد قصص الأنبياء، فذكر عشر فوائد مع إفادات جزلة حول قصص الأنبياء وكيفية توظيف القرآن لها. وقد تأملت قصص الأنبياء في القرآن فلاح لي فيها معنى كلي جليل يجعل فائدتها أوسع وأكبر من أن تكون سردا لأحداث من



تاريخ الأنبياء الكرام، رغم ما في ذلك من الأهمية والجلالة.

وبيان ذلك: أن كل واحدة من قصص الأنبياء تناقش منهجا من مناهج الانحراف، وتعرض بالتحليل والرد والتقويم لفلسفة من الفلسفات، وتبحث قضية كبرى من قضايا الفكر الإنساني، بحيث تشتمل قصص الأنبياء على مناقشة لأصول المناهج الفكرية المنحرفة والمتكررة عبر التاريخ الإنساني بأكمله، حيث إن البشرية في تاريخها الطويل عرفت فكرة مشابهة لفكرة العلمانية مثلا، ففكرة العلمانية وفصل الدين عن مجالات الحياة ليست حديثة أو وليدة عصور النهضة الأوروبية، بل هي منهج فكري بشري قدم برز عند قوم شعيب عليه السلام. فقد حكى القرآن عنهم: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (هود: ٨٧).

فهم يتعجبون من وجود علاقة بين الصلاة وبين إدارة الأموال، وأوجه التعامل معها. فقد جاء قوم شعيب فوق الكفر ببلية أخرى، وهي أنهم لا يرون رابطا بين التقوى والصلاة والصلاح وبين الشؤون المالية، وكأنهم يقولون: لا علاقة بين الدين وبين الاقتصاد. وعليه فإن قصة شعيب أرقى منهج نبوي قرآني ناقش قضية العلمانية، وأبرز المحاور المهمة التي تفكك تلك الفكرة، وتبين فسادها وضرها، وتأتي بالبدل الرباني والتوجيه الإلهي في هذا الصدد. وهذا يتسع لنا مجال آخر في فهم أسباب اختيار الحق سبحانه لقصص معينة من قصص الأنبياء، حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (غافر: ٧٨). وكان القصص المتقاة التي أوردتها القرآن تناقش رؤوس القضايا الإنسانية والنظريات الفلسفية.

ويترب على هذا أن يُقبل المفسر على قضية شعيب عليه السلام وأن يجمع كل مواضع ورودها في القرن ثم يتأمل المعالجة الإلهية لقضية العلمانية. وكيف علم الله تعالى شعبيا عليه السلام المداخل الدقيقة لمناقشة تلك القضية، وما هي المرتكزات التي رشحها القرآن وأبرزها في مناقشة تلك القضية، وذلك بعد أن يقرأ العلمانية وتطوراتها ودرجاتها قراءة دقيقة على غرار ما كتبه الدكتور عبد الوهاب المسيري في كتابه "العلمانية الجزئية، والعلمانية الشاملة"، بحيث يعرف ما ينبغي أن يبحث له من رد وجواب في القرآن.

وهذا تصنيف قصص الأنبياء فوائد زائدة على العظة والعبرة والتثبيت والتأسي، ويتسع مجال النظر فيها وتفتح لنا دراسات قرآنية جديدة في بحث أساليب القرآن في مناقشة التيارات والمناهج والفلسفات الحديثة، ويتبين أن كل قصة من قصص الأنبياء تمثل

مناقشة لفلسفة أو منهج فكري مما يتكرر عبر التاريخ.

محاور السور وأثرها في فهم القرآن

وأساس من أسس التفسير الآخر وهو: "محاور سور القرآن، وأثرها في فهم النصوص القرآنية". ومعناه أن لكل سورة من سور القرآن الكريم محورا محمدا تنبني عليه السورة، وتدور حوله وتؤكد به بصور ونماذج تفصيلية متعددة، وتجند لأجل خدمته وإبرازه أمثالا وقصصا ومقاطع قرآنية، مطولة أحيانا ومقتضبة حازمة خاطفة في أحيان أخرى بحيث تشتمل تلك المقاطع على أوامر تشريعية ونظم أخلاقية ومناقشة لمناهج فكرية مختلفة وما أشبه مما يشكل مقاصد جزئية، تتعاضد وتأتلف وتشببك وتتداخل من أجل ترسيخ وتوكيد معنى ذلك المحور الرئيسي الذي تدور السورة حوله. فمحور سورة البقرة مثلا في قوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ١٣١). إذ تدور سورة البقرة حول قضية الإسلام لله، وكيف أنها المدخل الأعظم لتحقيق قضية العبودية والإعانة التي جاءت بها سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥)، وأن الأمر فيها ينهض على أساس راسخ من التسليم المطلق لله بالعظمة والربوبية واستحقاق العبادة وأنه وحده الحاكم، وأن التشريع والأمر والنهي له وحده.. حتى إذا ما ثبتت قضية التسليم واستقرت في العقل، وانعقد عليها الجنان أمكن نقل هذا المكلف إلى قضية الاصطفاء وهي محور سورة آل عمران، إذ تدور السورة كلها حول آيتين محورتين وهما قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣٣-٣٤). وهكذا وكان سور القرآن تعالج قضية كبرى، ابتداء بقضية العبودية في سورة الفاتحة وقضية الإسلام في سورة البقرة وقضية الاصطفاء في سورة آل عمران وانتهاء بقضية الانتجاع إلى الله والاحتماء به في سورة الناس.

أساس أخير ومهم من أسس التفسير نختم به حديثنا عن أسس التفسير، وهذا لا يعني أن هذه الأسس محصورة وإنما بالتأمل والاستقراء يمكن أن نستخرج أسسا أخرى ويمكن أن نعد هذه الأسس نماذج من الأسس المستخرجة من القرآن الكريم لتفسيره.

الاشتقاق الأكبر وأثره في فهم النص

فمن أسس التفسير "الاشتقاق الأكبر وأثره في فهم النص". فالاشتقاق علم من أعظم علوم اللغة على الإطلاق، وأشدّها تأثيرا في فهم دلالة التراكيب. وهو علم دال على ثراء العربية

وسعة بحور اللغة. والأصل فيه إدراك المعاني، ثم ملاحظة سريان المعنى في كل الصور اللفظية المتناسلة الدالة عليه، والتي انتزع بعضها من بعض، أو عكس ذلك؛ بأن تجمع الألفاظ المتشابهة على نحو معين بغية الوصول إلى المعنى الذي تدور حوله، إضافة إلى أنه تستخرج به من اللفظ الواحد صور بالغة الكثرة في تعبيرها عن الأحوال والهيئات والاحتمالات والفوارق الدقيقة التي تطرأ على المعنى الواحد باعتبار تنوع الشخصيات واختلاف الأحوال، بحيث يستخرج لكل حال صورة من صور اللفظ.

ثم هو علم واسع دقيق فيه مؤلفات كثيرة، وإنما أردت هنا نوعاً محدداً من أنواع الاشتقاق، وهو نوع تنوعت أسماؤه عند العلماء، فسماه الفخر الرازي في "مفاتيح الغيب" "الاشتقاق الأكبر". وتبعه محمد راغب باشا في كتاب "السفينة" له، وتبعهما صديق حسن خان في "العلم الخفيا" من علم الاشتقاق وغيرهم...

وهؤلاء جميعاً يتكلمون على نوع واحد اختلفت أسماؤه. قال الأستاذ عبد الله أمين في كتاب "الاشتقاق": "الاشتقاق الكبار وهو انتزاع كلمة من كلمة أخرى بتغيير في ترتيب بعض أحرفها، بتقديم بعضها على بعض مع تشابه بينهما في المعنى والاتفاق في الأحرف". ويسمى هذا الاشتقاق "قلبا لغويا" تمييزاً له من القلب الصرفي الإعلالي وهو إبدال بعض أحرف العلة من بعض.

وقد أسمى هذا القلب اللغوي "القلب الاشتقاقي"، لأنه من مباحث علم الاشتقاق وأكثر ما يكون القلب الاشتقاقي في الكلمات الثلاثية، وبصيغتين في المادة الواحدة مثل: "جذبه، وجبذه" إذا شده إليه..

قال الإمام الفخر الرازي في "التفسير الكبير": "المسألة الأولى: أعلم أن أقصر الطرق في تعريف مدلولات الألفاظ هو طريقة الاشتقاق، ثم إن الاشتقاق صيغة الماضية والمستقبل والمصدر، ومثل اشتقاق اسم الفاعل واسم المفعول وغيرهما منه. وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن الكلمة إذا كانت مركبة من الحروف كانت قابلة للانقلابات لا محالة، فنقول أول مراتب هذا التركيب أن تكون الكلمة مركبة من حرفين ومثل هذه الكلمة لا تقبل إلا نوعين من التقلب كقولنا "من" وقلبه "نم".

وبعد هذه المرتبة أن تكون الكلمة مركبة من ثلاثة أحرف، كقولنا "حمد"، وهذه الكلمة تقبل ستة أنواع من التقليلات، وذلك لأنه يمكن جعل كل واحد من تلك الحروف الثلاثة ابتداء لتلك الكلمة، وعلى كل واحد من التقديرات الثلاثة فإنه يمكن وقوع الحرفين الباقيين على وجهين، لكن ضرب الثلاثة في اثنين

بسته، فهذه التقليلات الواقعة في الكلمات الثلاثية يمكن وقوعها على ستة أوجه.

ثم بعد هذه المرتبة أن تكون الكلمة رباعية كقولنا "عقرب، وثعلب" وهي تقبل أربعة وعشرين وجهاً من التقليلات. وذلك لأنه يمكن جعل كل واحد من تلك الحروف الأربعة ابتداء لتلك الكلمة، وعلى كل واحد من تلك التقديرات الأربعة فإنه يمكن وقوع الحروف الثلاثة الباقية على ستة أنواع من التقليلات وضرب أربعة في ستة أنواع من التقليلات، وضرب أربعة في ستة يفيد أربعة وعشرين وجهاً..

وعليه يمكن للمفسر أن يتوسع في تحليل لفظ "الملك" والملائكة جنس شريف من الخلق. أورد القرآن بعض أوصافهم وسكت عن بعض اكتفاء بدلالة الصورة الاشتقاقية للفظ الملك. إذ الأصل في اللفظ الدلالة على القوة والبأس، فكان الأصل في الملك القوة، تلك القوة التي تشيع وتسري في كل سماته وأوصافه؛ فهم لا يأكلون ولا يشربون وهذه قوة، وهم لا ينامون وهذه قوة، وهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهذه قوة. ومنهم خزنة جهنم وهم ملائكة غلاظ شداد وهذه قوة، ثم هم مع بأسهم وسلطوهم وقوتهم يجمعون إلى ذلك غاية الخضوع للحق، فهم يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون وهم مع حملهم للعرش يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا.

كل ذلك يلفت نظر المفسر إلى توظيف قضية الملائكة في ترسيخ معنى عظمة الحق سبحانه من حيث خضوع هذه الأكوان العظيمة لجلاله، يلفت نظر المفسر إلى جلال وعظمة القضية التي عرضها الحق سبحانه في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (آل عمران: ١٢٤-١٢٦).

وإذا ألفنا النظر والتأمل في المفردات القرآنية بهذه الطريقة انفتحت لنا آفاق رحبة في الوقوف على التصورات الكاملة التي أراد القرآن لنا أن نعرفها ونحيط بها. وذلك لأن الألفاظ حينئذ سوف تشر لنا مكنوناتها ويوح كل لفظ بما يحمله معناه من أبعاد، ولا يخفى أن هذا في غاية الأهمية في فهم القرآن. ■

(*) مفتي الديار المصرية.



السوق

أ.د. حسن الأمrani*

نزلتُ إلى السوق كيما أمير
فكانت كمعترك لا يلين
وذاك يقارب بين الخطا
وآخر قد أتعبته السنون
وكلهم أدرك المبتغى
ولكنني دونهم مفلسٌ
ولما سألت وسال الفؤاد
تناهى نداء إلى مسمعي
لقد نمتَ حتى انبلاج الصباح
تقلبهم كان في الساجدين
أما زلت في السوق تبغي الفلاح
لقد ربح البيع يا بن التراب
وقطعت ليلك كالعاشقين

فميرة أحبابنا فرض عين
فهذا بصدق، وهذا بمين
وذلك كالسهم في الخافقين
فأصبح يخطر ما بين بين
وعاد ليرتاح من بعد أين
فما عدت إلا بخفي حنين
بما أثقل النفس والمعصمين
وأصبح كالجمر في الأصغرين:
وكحل سهدهم المقلتين
وقد شغلتك أمورٌ مَضِين
أتحسبه ذهباً أو لجين؟
إذا بعت ربك ما باليدين
وذرفت في جوفه دمعتين

(*) رئيس تحرير مجلة "المشكاة" / المغرب.



بنائية القرآن المجيد

دعامة من دعامات الختم

أ.د. أحمد عبادي*

ورتل: حسن التنضيد مستوي النبات، ورتل الكلام: أحسن تأليفه. والرتلاء: جنس من الهوام "وهي العنكبوت التي تنضد بيتها بشكل شبكي بديع تتفاضى كل مكوناته. غير أننا نجد كثيرا من المفسرين -رغم اتفاق أقوال أئمة اللغة على أن الترتيل مأخوذ من النضد ومن الاتساق ومن التنسيق ومن الانتظام على استقامة- قد قصروه على الجانب الصوتي منه؛ فقالوا هو: "إرسال الكلمة من الفم بسهولة واستقامة". ولما كان الأمر في القرآن ينصرف بالأصل إلى تدبر المعاني وتفهمها، إذ هو كتاب هداية، فإن قَصُرَ المعنى على الجانب الصوتي من القرآن رغم الحشد الحاشد من الآثار، كأثار ابن عباس ومجاهد وقتادة، ومن كلام أئمة اللغة، كابن الأعرابي والجوهري وابن منظور وابن عباد وغيرهم مما ينص جميعه على حسن تفهم المعاني وتفهمها، أقول: رغم كل تلك الآثار والأقوال فقد تم إهمال البعد البنائي/النضدي الاتساق الذي تتضمنه هذه الكلمة: الأمر الذي يعد تحكما بغير برهان، خصوصا إذا وجدنا في تعريفات بعض القراء كأبي البقاء الكفوي للترتيل، النص الصريح على أنه للتدبر والاستنباط أيضا

يعتبر مفهوم المنهج (Méthode) من أنفس ما اهتدى إليه العقل البشري عبر قرون متتالية من الكدح والمكابدة في المجال المعرفي، وهو عبارة عن آليات متضافرة للكشف عن الحقائق المعرفية في مجالاتها المتعددة والمتنوعة، إذ ينصبغ المنهج دوماً بصبغة المجال الذي يُعمَل فيه. وقد أدى إعمال المنهج إلى بروز مفهوم أدق هو مفهوم المنهجية (Methodologie)، وهي عبارة عن إطار مرجعي جامع لمجموعة آليات استنتاجية بحثية متواشجة ينتظمها ناظم موحد. ولم يهتد العقل البشري إلى المنهجية في المجال الكوني إلا بعد أن اكتشف أن الظواهر الكونية موحدة عضويا، انطلاقاً من إدراك بنائية الكون ووحدته العضوية. وقد تمت تعديّة هذا المفهوم إلى المجالات الاجتماعية والإنسانية من لدن مجموعة من المدارس. وفي مقابل بنائية الكون، التي أطلق اكتشافها إمكان البحث المنهجي وفجر كل هذه العطاءات المعرفية والمادية التي نشهدها اليوم، فقد منّ الله سبحانه بأن أقر بين ظهرانينا القرآن ترتيلاً، والترتيل لغة من "الرتل وهو حسن تناسق الشيء. وتغر رتل

ي



وذلك في قوله: "وأما الترتيل، فإنه للتدبر والتفكير والاستنباط". إن الوحدة العضوية في القرآن المجيد، والتي تشكل أحد أهم وجوه الإعجاز فيه، تفتح المجال أمام القراءة المنهاجية للآيات/ البصائر صُعداً نحو مآلات معرفية لا حصر لها.

ولطالما دندن علماؤنا كالإمام ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)، والإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، والإمام أبي بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ)، والإمام أبي إسحاق الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) وغيرهم حول بنائية القرآن تحت عناوين مختلفة؛ فتارة سموها النظم، وتارة سموها الترتيب، وأخرى سموها الاتساق أو المعمارية أو البنائية مباشرة.

ومن أعظم وأجلى ما كتب حول بنائية القرآن تلك الورقات الوضيئة التي كتبها الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه القيم "النبا العظيم"، وسوف نختزئ منها بثلاث فقرات نرى فيها تعبيراً واضحاً عن إدراكه العميق لهذه البنائية، محيلين على باقيها ليراجع في موضعه.

يقول رحمه الله: "فلو أنك نظرت إلى هذه النجوم عند تنزيلها... فرائتها وقد أُعدَّ لكل نجم منها ساعة نزوله سياجٌ خاص يأوي إليه سابقاً أو لاحقاً، وحُدِّد له مكان معين داخل السياج متقدماً أو متأخراً، إذن لرأيت من خلال هذا التوزيع الفوري أن هناك خطة تفصيلية شاملة قد رُسمت فيها مواقع النجوم كلها من قبل نزولها، بل من قبل أن تخلق أسبابها، وأن هذه الخطة التي رسمت على أدق الحدود والتفاصيل قد أبرمت بأكاد العزم والتصميم.. فما من نجم وضع في سورة ما ثم جاوزها إلى غيرها، وما من نجم جعل في مكان ما من السورة آخراً ثم وجد عنه أبد الدهر مصرفاً ومحولاً...".

ويقول رحمه الله: "أقبل بنفسك على تدبر هذا النظم لتعرف بأي يد وضع بنيانه، وعلى أي عين صنع نظامه... ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة، حتى يحدثك التاريخ أنها كلها أو جلها قد نزلت بنجومها، أو لتقول إنها إن كانت بعد تنزيلها قد جمعت عن تفريق، فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع، كمثل بنيان كان قائماً على قواعده، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قُدِّرَت أبعاده ورقمت لبناته، ثم فرق أنقاضاً، فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوباً يشد بعضه بعضاً كهيئته أول مرة".

ثم قال رحمه الله: "ولماذا نقول إن هذه المعاني تنتسق كما تنتسق الحجرات في البنيان؟ لا، بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضوعي من أنفسهما، كما يلتقي العظامان عند المفصل، ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بها عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشرابين والعروق والأعصاب... كما يأخذ الجسم قواماً واحداً ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية".

أهمية بنائية القرآن المجيد في المجال المعرفي

إن القرآن المجيد في اتساق وحدته البنائية يحقق للبشرية وحدة معرفية تلملم شتات الإنسان المعرفي، وتوحد بين زوايا إدراكه، بما يشبه إكسابه جهاز تنسيق معرفي يُمكنه من الخروج من التفرع الإدراكي ومرحلة الشركاء المتشاكسين، إلى صيرورته مسلماً لله رب العالمين، فيطلق في السير سوياً على صراط مستقيم. وقد تنبّهت د. منى أبو الفضل -رحمها الله- بلوذية إلى هذه الحقيقة فقالت في معرض حديثها عن حيوية الخطاب القرآني:

"إن هذه الحيوية إنما ترجع في جانب منها إلى الإعجاز البياني في الأسلوب القرآني في الخطاب؛ والذي يجمع بين خطاب النفس الإنسانية في أبعادها الفطرية والوجدانية وخطاب العقل في أبعاده المنطقية والبرهانية. ومناط الإعجاز هنا هو في تجاوزه للقوانين النفسية التي بمقتضاها نرى العقل والعاطفة لا يعملان إلا بالتبادل، وينسب عكسية نحو تضافر وائتلاف بينهما... والدلالة العملية لذلك في مجال بحثنا، هي أن الأصول المنهجية للتعامل مع مصادر التنظير الإسلامي لابد أن تعتبر بهذا المعنى في أسلوب البيان القرآني. فإذا كان هناك موضع للتمييز بين تنوع جوانب ومصادر السلوك الإنساني والسلوكيات في المجتمع، فإن علينا أن نتعامل مع الإنسان في وحدته المتضمنة لأبعاده المتنوعة، وأن نتطلق منهاجنا في التعامل مع الظواهر الاجتماعية من تلك القاعدة التي توفّر لها أوسع قدر من التكامل الممكن وسعة الأفق.

والوجه الآخر لهذه الملاحظة أن علينا أن نتعامل بكثير من التحفظ مع المناهج المتداولة في مجال التخصص، ليس فقط للاعتبار الجوهرية الذي يحكم منحها جميعاً، والذي ينشأ عن المنطلقات الفلسفية المعرفية التي تقوم عليها، مما يتنافى مع الأصول المعرفية الإسلامية، ولكن لأنها لا محالة واقعة بين مثالب الإفراط



والتفريط، على النحو الذي من شأنه أن ينعكس في كل من طبيعة ونتيجة الدراسات التي تركز إليها.

وأول ما نستفيد من التعامل مع أسلوب البيان القرآني، هو ضرورة اتساق الأصول المعرفية ومحتوى الرسالة مع الأصول المنهجية أو طرق الاقتراب والتناول لها. بل إننا نرى أنه من شأن تمايز الخطاب القرآني على هذا النحو الذي يؤلف فيه بين المتنابرات، أن أوجد نسقا إسلاميا خاصا في المعرفة، قوامه الوحدة والاتساق، وإمكانات التأليف بين المتباينات، وهذا على خلاف النسق السائد في المجال المعرفي المعاصر، والذي هو وليد وميراث التطور التاريخي الخاص بالحضارة الأوروبية في أبعادها الفكرية والروحية والواقعية".

ولقد سُقت هذا النص بطوله ولم أشأ أن أثلمه بتصرف لما له من بالغ الأهمية في هذا الباب.

إن إدراك هذه الحقائق يضع على عاتق علماء الأمة مهمة تحليلية مستأنفة لمعالم النسق المعرفي الإسلامي. ومن الواضح قيام هذا النسق على المنهجية المؤسسة بدورها على إدراك البنائيتين في الكتابين: المنظور (الكون) والمسطور (القرآن المجيد). وفيما يلي بيان لعلاقة العلوم المتصلة بالكتابين بوحدهما البنائية.

علاقة التسخير بالوحدة البنائية للكون

مفهوم التسخير: قال الزبيدي: "والتسخير: التذليل، وسفن سواخر مواخر من ذلك. وكل ما ذل وانقاد أو هُيأ لك على ما تريد، فقد سخر لك. وسخره تسخيْرًا: ذلله وكلفه عملا بلا أجرة... قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ (إبراهيم: ٣٣). وقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ مَسْخَرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ (الأعراف: ٥٤). قال الأزهري: جاريات مجاريهن".

وتسخير الخليفة للإنسان عام، يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ (الحج: ١٣).

إن الذي يحول دون الإنسان وتسخير الكون هو التعضية والتفرقة بين مظاهره وعدم الاستبصار ببنائيته. فمن خلال الاتساق يتمكن الإنسان من إدراك استمرارية النظام الكوني القائم على قوانين وسنن تؤدي وظيفتها فيه، وتسري سريانا لا يتخلف ولا يقصر عن مظهر من مظاهره، ما علم منها الإنسان وما لم يعلم، وبالطرائق التي أحاطت بها معرفته أو تلك التي لم تبلغها بعد. إن الكون نظام هادف نابض بالحياة مفعم بالمعنى، حيث إن

كل أجزائه تكوّن "بناء عضويا تتفاعل أجزاؤه وأعضاؤه بطرق لا يزال البشر في بداية الطريق إلى اكتشافها بفضل العلم، لكن في أجزاء محدودة جدا من الطبيعة. أما المسلمون فهم يعلمون أن الخليفة كيان عضوي، وأن كل جزء فيها يخدم غاية ما، حتى ولو كانوا لا يعرفونها. وهذا العلم ثمرة لإيمانهم".

ورغم أن وحدة الكون البنائية أضحت اليوم مُدركا لا يحتاج إلى مزيد برهنة، فإنه من النافع استحضار الآيات من القرآن التي تفيد بنائية الكون وغائيته وملابسته الحكمة لكل مظهره ودقائقه آيات كثيرة يتعذر حصرها في مثل هذا المقام، منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَتَيْنَاكُمْ أَشَدُّ حَلَقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ ﴿وَأَعْطَشَ لِبَنَائِهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلَآئِعًا لَّكُمْ﴾ (النازعات: ٢٧-٣٣)، قال الزبيدي: "والسَّمَك: السقف، أو هو من أعلى البيت إلى أسفله".

وتلفت الآيات العديدة التي فيها ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ النظر إلى أن الكون بناء تسري في جنباته الحكمة والقصد والغائية.

قال برهان الدين البقاعي في معرض حديثه عن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ (إبراهيم: ١٩): "بالأمر الثابت من وضع كل شيء منها في موضعه على ما تدعو إليه الحكمة".

إن هذه الوحدة البنائية في الكون هي التي مكّنت العقل البشري -بعد اكتشافها- من تأسيس كل العلوم التي يمكن أن نصطلح على تسميتها "علوم التسخير"، ثم تطويرها إلى حد بلورة المنهجية التوحيدية بين التخصصات، والتي أعطت الفكر العلمي الجديد مددا قويا، وفتحت أمامه إمكانات في غاية الكثرة والتنوع والنفع.

علاقة التيسير بالوحدة البنائية للقرآن المجيد

أ- مفهوم التيسير: اليسر بالفتح، وبجرك: اللين والانقياد... ويسره: لاينه. واليسر محرّكة: السهل اللين الانقياد... واليسر بالضم: السهولة والغنى. واليسر ضد العسر، واستيسر الشيء: تسهّل، ويسره: سهّله... ويسرت الغنم: كثر نسلها ولبنها.

وقد وردت لفظة التيسير مقترنة بكتاب الله تعالى في ستة مواقع من القرآن المجيد، منها أربعة في سورة القمر بلفظ واحد هو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ (القمر: ١٧، ٢٢،

٤٠، ٣٢) ومنها قوله تعالى في سورة مريم: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ (مريم: ٩٧)، ثم قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الدخان: ٥٨). ولفظ التيسير في هذه الآيات جميعها يفيد تسهيل القرآن للذكر من لدن الله الذي يفضي إلى لين وانقياد ذاتي لمن أراد الذكرى.

ب- العلاقة بين علوم التيسير والوحدة البنائية للقرآن

الكريم: في مقابل التسخير للكون إذن، نجد تيسير القرآن، وفي مقابل التفكير في الكون المنتج للمعرفة فيه ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ (آل عمران: ١٩١)، نجد التدبر في القرآن المنتج للاهتمام به: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩). وكما أن علوم التسخير تنتج عن الوعي بينائية الكون وخضوعه لسنن قابلة للتعلل والإدراك. بمقتضى المواءمة التي بين الكون والإنسان، وأنها علوم تتطور بفعل اتباع المنهجية الآياتية، وتفعيل القدرة على تسمية الأسماء - كما سيأتي بيانه حين الكلام عن المنهجية الآياتية- فإن علوم التيسير تنتج عن الوعي بينائية القرآن المجيد وتضمنه لسنن قابلة للتعلل والإدراك من لدن الإنسان، بمقتضى المواءمة التي جعلها الله بين الإنسان والقرآن. غير أن علوم التسخير - وللنفع السريع الظاهر الذي ينتج عنها- قد شهدت وتشهد تطورات في غاية الأهمية والسرعة، في حين أن علوم التيسير قد أصابتها صنوف من الانتكاس، بسبب عوامل متعددة، أهمها التقليد وانعدام الرؤية وانقطاع الطريق، بفعل الحضور الجبار الكابت للاجتهادات وللجهود الموسوعية التي بذلها السابقون، إلى درجة رواج مقولات محبطة في أمتنا، من مثل: "ليس في الإمكان أبدع مما كان" وغيرها، مما يحتاج إلى استدراك ناجز من لدن مؤسساتنا العلمية والبحثية.

المنهجية الآياتية ثمرة من ثمرات إدراك البنائيتين (بنائية الكون وبنائية القرآن) وبوابة للمعرفة الناجعة الراشدة.

ونقصد بالمنهجية الآياتية المعرفية القائمة على قراءة الآيات والبصائر باسم الذي علم الأسماء، الله الذي خلق.

وقد كان هذا المضمون، هو أول وحي تلقاه سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، وهو قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ١-٥).

والآيات والبصائر مبثوثة في الكون، كما أنها مكونات القرآن. إن آيات سورة العلق تأمر سيدنا محمدا ﷺ، ومن خلاله الإنسان في كل زمان وفي كل مكان، أن يقوم بضربين من القراءة: قراءة آيات وبصائر الخلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وقراءة في الوحي الذي حفظه الله في السطور وفي الصدور: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾. فهي قراءة في آيات وبصائر الكون بتوجيه وترشيد من آيات وبصائر القرآن.

إن الآيات والبصائر في القرآن المجيد تمكن من إضافة الوجهة إلى قدرات الإنسان التسخيرية، والناجحة أساسا عن تعليم الأسماء الممكنة من قراءة الآيات والبصائر الكونية كما يتضمن قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة: ٣١-٣٣)، بيد أن الوجهة التي تحررها لنا آيات الكتاب الحكيم، وهي من الضرورة بحيث بدونها لا ينال رشد ولا يهتدى إلى قبلة.

نعم، إن الآيات والبصائر الكونية، حتى حين تقرأ بدون هداية من آيات القرآن المجيد تُكسب الإنسان الفعالية التسخيرية، ولكنها فعالية قد تكون مردية في غياب الاستبصار بالوجهة؛ يقول تعالى: ﴿وَعَادًا وَتَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (العنكبوت: ٣٨). قال الفراء: "كانوا عقلاء ذوي بصائر"، فهم كانوا ذوي بصائر تسخيرية، غير أن عدم استجابتهم لرسولهم -والذين كسائر الرسل جاؤوا لإضافة الوجهة إلى الفاعلية- أدى بهم إلى الهلاك. إن قراءة الآيات والبصائر الكونية استهداء بالآيات والبصائر القرآنية في ضوء الإدراك المنهجي للبنائيتين، تمكن الإنسان من وجهته فقبلته، وبالتبع من السجود والاقتراب.

وهنا الفاصل بين منظومتين: منظومة الجمع بين الآيات الكونية والقرآنية، ومنظومة التعضية والتفريق بينهما. وهي منظومة لا ترى في كسب الإنسان إلا أداة إنتاج للمال والطعام/للقيمة المضافة، مما يشكّل حالة عدم إِبصار مردية، إذ الكون في منظومة



أرحم الراحمين عطاء غير مجذوذ، يسخر بالقراءة لآياته وبصائره في نور آيات وبصائر القرآن المجيد، للتمكن من الوجهة والقبلة فالسجود، وليس فقط مجالا لإنتاج القيمة المضافة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات: ٥٦-٥٨). فالكون إذن في منظومة أرحم الراحمين ليس معملا مقتصرًا على إنتاج "القيمة المضافة" كما تراه منظومة الذين لا يوقنون، بل هو ابتداء معمل لعبادة الله وحده، ووظيفة كل من فيه هي هذه، سجودا وتسبيحا، وهي وظيفة لا تنفي الوظائف الأخرى بل توطنها وتكملها، وحين تعطل من قبل من حمل أمانة القيام بها إراديا، فإنه ترتب على ذلك عواقبه. قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق"، أي بعد أن تعطل الوظيفة الأصلية للوجود الإنساني في هذا الكون.

إن الإعراض عن الاهتداء بالآيات والبصائر القرآنية في عملية القراءة للآيات والبصائر الكونية، يفضي إلى هلاك لا يصيب المعرضين خاصة، بل يعم معهم مَنْ يضلونهم بعلم وبغير علم. يقول تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿لَا حَرَمَ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا يَسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَادَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ (النحل: ٢٢-٢٥). إن العقل العلمي المعاصر يرفض استدماج مفهوم الوحي في بنيته المعرفية، وهو إذ يتسامح مع بعض موضوعاته، فإنه يصمم على رفض منهجيته ووحدته البنائية، وإطاره الغائي، مؤكدا على أن اختصاص الكتب الدينية يجب أن يتوقف عند القنوات الإيمانية، وغيبات ما وراء الطبيعة... فطالما أن هناك مقولات في الكتب الدينية تتعلق بالغيب، فإنه لا مجال لاتخاذها مصدرا من مصادر العلم، ومن ذلك تعريف المعرفة على أنها "كل معلوم خضع للحس والتجربة".

إن القراءة الآياتية للكون تتجاوز بالإنسان حالة الإفراز الذهني للمعرفة، المنفصل عن الكون والتجريب (النموذج اليوناني القديم) كما تتجاوز به حالة الغرق في التجريب، دون النظر إلى الغائية والقصد (النموذج المعرفي الغربي المعاصر)، إنها قراءة تمكن الإنسان من تجاوز المحدودية التي تفرضها عليه الحتمية الكثرة،

نحو آفاق الوصل غير المتناهي بين آيات الكتابين، باعتبار إمكان النظر إليها من زوايا مختلفة، أو باعتبار التفصيل للمجملات الذي يُتيحها أعمالُ قدرة الأسماء، وهو لا شك تفصيل يفتح أمام العقل الإنساني إمكانات في غاية السعة.

إن المنهجية الآياتية تحول دون مُعتمدها واستبداد سَوْرَةِ الإحساس بامتلاك الحقيقة المطلقة/الاستغناء، مما يوقع في الطغيان، كما تحول دون مُعتمدها ورفض ما خضع من المعارف لتأييد الآيات وشهادتها.

إن المعرفة الناتجة عن المنهجية الآياتية أشبه ما تكون بصراط لامتناه نظرا لتجدد القراءة في كل حين، بسبب تعدد وتنوع الآيات. أما إذا تم الانطلاق نحو الربط بين الآيات وبين ما ينبثق من آيات جديدة بعد تفصيلها، فإن المعرفة تصبح نابضة بفعل تصديقها لما بين يديها والهيمنة عليه نحو تصديق آخر جديد، بما يشبه حركة نواسية متنامية سيارة، وهنا تتحول القدرة على التسمية إلى معبر نحو إِبصار الآيات والبصائر، إذ الأشياء والحقائق تُعرف بكيفية أدق وأمثل عبر آياتها، وليس عبر مسمياتها. فتسمية الحياة حياة ليست أقدر على التبصرة بمماهيتها من الآيات الدالة عليها: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فصلت: ٣٩).

إن المسمى في نشأته الأولى كان عبارة عن رؤية للآيات/قراءة لها، فهو تسجيل وتعبير عن رؤية راء وقراءة قارئ. والمنهجية الآياتية تلغي الوسائط وتجعل الإنسان في كل مرة محققا للاتصال المباشر بالآيات، فحديث المتحدثين بالأسماء لا يعدو -في ظل المنهجية الآياتية- أن يكون تنبيهها للنظر الشخصي في الآيات: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت: ١٩-٢٠)، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النَّجْمَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿...قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾ (الأنعام: ٩٨-١٠٤). إن هذه المنهجية الآياتية باعتبارها ثمرة من ثمرات إدراك الوحدة البنائية للكتابين المنظور والمسطور هي التي تعطي لسير الإنسان في الكون معناه، وتجعل كسبه التسخيري كسبا باحثا عن الرشد، إذ هي منهجية يشعر إنسانها بالافتقار إلى الوحي:



من أجل السلام

آه يا طفلي العزيز!
يا كُلَّ البراءة،
يا كُلَّ الصفاء والنقاء،
يا كُلَّ السلم والسلام...
آه يا صديقي!
ليتك تُدرك،
كم إلى السلام سعيْتُ،
وحائمي البيض أطلقتُ،
لكل الأرض،
للإنسان،
وللفكر والوجدان...



﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (الأنعام: ٧٥-٧٧).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٥١). وفي مرحلة الختم للنبوّة والحفظ للذكر واتّضح معالم المنهجية الآياتية يصدع القرآن بتحميل إنسانها كامل مسؤوليته، كما يصدع برفع نير الإكراه ونتق معالم القدرة عنه لما استقر في واقعه بطريقة جليلة بينة محفوظة من البراهين والحجج، ومن الآيات والبصائر الدالة جميعها على سبيل الرشد: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٦-٢٥٧).

والرشد في القرآن المجيد من الجلاء والبيان بحيث ما لبثت الجن حين سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (الجن: ١-٢).

خاتمة

وإجمالاً، فإن من أكد مقتضيات التعامل مع كتاب الختم، الوقوف على المنهج القرآني المكنون النابض المتجدد الذي يقود الإنسان نحو آفاق الإفادة من قابلية القرآن المجيد للهداية للتي هي أقوم ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩)، ولن يتيسر ذلك إلا عن طريق الأطراح الملح، استنطاقاً واستهداء، بين يدي كلام الله تعالى. ومن مقتضيات هذا الأطراح، التلقي المسلم من الوحي عن طريق الأعمال المتصاعد المتنامي لمنهاجيته السارية فيه والتي تتكشف بالاجتهاد عبر الزمن، وهي منهاجية قد تبدى من خلال ما سلف، أن من دعائها الأساس، الوقوف على بنائية القرآن المجيد، وإدراك أنه ترتيل، ولنا بعون الله عودة إلى الموضوع. ■

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

الأبرو

فن الرسم على الماء

بيرول بيجر*

ليس من المعروف من قام بأول عملية رشّ الألوان على الماء وتمكّن من الحصول على أشكال متنوعة زاهية ثم أخرجها على الورق، أي ليس لدينا المعلومات الكافية عن المسيرة التاريخية لفن الأبرو. ولكن المعروف هو أن هذا الفن المسمى بالأبرو، يتحلّى بطابع عثماني أو بطابع تركي. وتعني كلمة "الأبرو" عند الأتراك، حاجب العين، والورق الملون والمجزّع، أو القماش الملون بألوان مختلفة بشكل موج يشبه حاجب العين، أو ألوان حجر الرخام. كما تأتي في التركيبة بمعنى الورق أو القماش الملون الذي يستخدم في تغليف الكتب والدفاتر.

ل

الرسم على الماء

عمل الأبرو فيه لمسات فنية جمالية رائعة، ويحتاج إلى صبر وتأنٍ. وقد يتميز هذا الفن بعدم تكرار نماذجه أو بعدم تقليده. ولصنع الأبرو يحتاج الـ "أبروزن" أي صانع الأبرو، إلى ورق يمتص الصبغات وإلى حوض على شكل مربع. فيقوم الفنان بخلط مادة بيضاء صمغية تسمى "كتره" بمقادير معينة مع الماء. وبعدها تفرغ الصبغات المجهّزة على وجه الحوض المائي بالـ "كتره". ثم تحرك البقع الموجودة على سطح الماء بالفرشاة التي يتكون رأسها من شعر ذيل الحصان أو من إبرة بأشكال متعددة. ونتيجة لذلك تظهر أشكال مبهرة رائعة. وبعد ذلك توضع الورقة الخاصة على سطح هذه الأشكال ثم تُمسك من الأطراف وترفع ثم تقلب دون هز أو تحريك، وعندها تتشكل النماذج وبألوان زاهية وجميلة.

لقد أخذت رسوم الأبرو - في القرن السادس عشر - مكانة مرموقة بين الأمتعة الثمينة في الغرب، بعد قيام السياح الأجانب برحلات إلى الأراضي العثمانية التي بلغت آنذاك أوج ازدهارها في الفن والثقافة والعلم والتكنولوجيا. وسرعان ما تحول هذا الفن عند الأوروبيين - في القرن الثامن عشر - إلى موضة لا يستغنى عنها، وطُبعت رسومات الأبرو على معظم مجلدات الكتب الأوروبية.



الدرجة؟ ولماذا يُشعر هذا الفن الكثير منا بأنه فن تصوفي رغم قلة الأشكال الرمزية فيه بالنسبة للفنون الأخرى؟

إن الذين اعتنوا بفن الأبرو وأورثوه الأجيال من بعدهم، وعلى رأسهم منتسبو التكية الأربكية في منطقة أسكدار بإسطنبول، هم الذين استطاعوا بمجادة أن يغدّوا هذا الفن بروحهم ومشاعرهم وقيمهم التي زينوا بها حياتهم المادية والروحية، وتصوراتهم التي تطلّعون من خلالها على قيمة الإنسان في الوجود.. لقد أسهم الكثير من الفنانين والخطاطين والنقاشين في تطور فن الأبرو، وحاولوا أن يحافظوا عليه بصدق على مدى الأزمان.

فلوحات الأبرو التي كانت تباع للصّحّافين لتأمين حاجات الحجيج القادمين من أوزبكستان والمقيمين في التكية الأربكية.. والدراويش الذين جردوا أفكارهم من المشاغل الدنيوية أثناء وقوفهم على الحوض، والروايات التي تذكر أن السيد "خطيب محمد" توفي حرقاً عندما أراد أن يخلّص رسوماته من الحريق.. والمجلّدون الذين غلّفوا كتبهم بزخارف الأبرو، والشيخ "أدهم هازرفان أفندي" الذي قدم أعمالاً مبتكرة في مجال الفن والعلوم.. والأستاذ "نجم الدين أوقباي" الذي اشتهر بالخط ونقش الورود ولا سيما بابتكاره لوحة الأبرو التي رسم عليها لفظة الجلالة، و"مصطفى دوزكومان" العطار الذي استطاع أن يعيش فن الأبرو لسنوات طويلة في منطقة أسكدار والذي أبدع الـ"أبرونامه".. بالإضافة إلى الذين ورثوا هذا الفن بحق من أجدادهم وأساتذتهم وساروا على نفس الروح والمعنى فيه... كلهم أضفوا على فن الأبرو لمسة جمالية من أرواحهم وأكسبوه مكانة رفيعة وأهمية كبيرة بين الفنون الإسلامية الأخرى.

الأبرو فن أصيل

إن فن الأبرو ليس فناً تقليدياً شكلياً، بل هو فن أصيل يرتبط بجذور إسلامية متينة له أسلوبه المتميز وطريقته الخاصة به، إنه يتحلى بالروح والمعنى التي تكمن في لب الحضارة الإسلامية. كما أنه فنٌ ظهر على يد فنانين استنشقوا الهواء الروحي من الإسلام ثم توارثوه جيلاً بعد جيل حتى وصل إلى يومنا هذا. والجدير بالذكر أن زهرة الزنبق (لاله) والياقوتية وغيرها من الأزهار اكتسبت روحاً جديداً بهذا الفن، ليس برسمها في حوض الأبرو فحسب، بل بإدراك القيم الثقافية والمبادئ

وقد اعتنى الأتراك بفن الأبرو عناية فائقة ومارسوه مدة طويلة في الخط والتغليف. بيد أن هذا الفن لم يحظ بهوية ذاتية حتى أواخر القرن العشرين. وقد تم استخدامه بادئ الأمر من قبل أقلية من الدراويش المتصوفة لإشباع جانبهم الروحي والمعنوي. وهذا حفظ هويته وساعده على الرقي والازدهار رويداً رويداً. كما أدى هذا الاهتمام الصوفي إلى إحياء فن الأبرو من جديد، واكتسابه هوية ذاتية مستقلة بين الفنون الإسلامية الأخرى.

الأبرو مرآة للثقافة

والجدير بالذكر أن فن الأبرو لم يتميز عن قرينه فن "Suminagashi" في الشرق الأقصى بمعداته وصباغه وألوانه وأشكاله فحسب، بل بطابعه وطبيعته الخاصة به أيضاً. ولكن الميزة التي أعطت هذا الفن هوية أصيلة، هي عكسه الألوان الثقافية والفنية المتنوعة، وكشفه عن ثراء التراث في الحضارة التي عاش تحت ظلها، ومن ثم تقديمه الفن والجمال في نطاق فلسفة داخلية روحية بأبعاد تصوفية، أي أن يكون مرآة للتراث والثقافة التي انبثق منها. وليس المقصود من التراث هنا، العادات التي تعيشها الشعوب وتتداولها فيما بينها.

ولا نبالغ إن قلنا إن أجمل رسومات الأبرو موجودة في تركيا، لا سيما اللوحات التي يصنعها الفنانون الذين يسكنون في إسطنبول. ولقد بلغت صور الأبرو -في أيامنا هذه- مرحلة تطويرية لم يسبق لها مثيل، حيث أضفت لمسة جمالية على الشكل والمعنى، أبهرت العيون وسحرت القلوب وخلبت الألباب. ولعل هذا التوسع والانتشار السريع لفن الأبرو الكلاسيكي، وبالتالي ازدياد المراكز التعليمية له في تركيا وبخاصة في إسطنبول، أدى إلى ابتعاده عن هويته الأصلية وإلى ضياع تأثيره الروحي.. إذ تأثرت قيمه بعوامل ثقافية خارجية لا تتفق مع طابعه وهويته الذاتية. وهذا الأمر يضعنا أمام شقين اثنين؛ إما أن يستمر فن الأبرو كمرآة يعكس الفلسفة الروحية والنظرة الكونية لثقافة أصيلة، وإما أن ينسلخ عن جذوره وينأى عن مفاهيمه التي تحلى بها منذ عصور ويتحول إلى فن زخارف فحسب.. ولكن رغم كل هذه التغيرات والتحولات الثقافية التي طرأت على الشعب، فإن فن الأبرو ظل قائماً يحافظ على مكانته في الحضارة الإسلامية.

ما الدوافع التي جعلتنا نتمسك بفن الأبرو إلى هذه



لبلغ الفن إلى الذرى، ولبقي بمارس بصدق وإخلاص لأزمان طويلة. وإن انكماش النقاش حول النمطية والأشكال فقط، يعني الاستغناء عن الأبعاد الروحية والمعنوية ومن ثم الابتعاد عن الجذور والذات.

فن لا يعبر عن الذات مباشرة

لا يقوم الفنان في فن الأبرو بالتعبير عن نفسه أو ذاته مباشرة. حتى وإن بدى ذلك، فهذا لا يعني إلا انعكاساً طبيعياً للألوان التي استخدمها أو للأسلوب الذي ابتكره. كما أن الأشكال التي يختارها الفنان لا تدل إلا على فكر أو مفهوم استمد روحه من الثقافة والحضارة التي نشأ فيها ونما.

فإن فن الأبرو أي الأبرو التقليدي، هو فن يأخذ بالمرء إلى أعماق النفس والذات، ويسمو بالذات إلى ما وراء العوالم، حيث يشدّ ألباب المهتمين به إليه، ويعيدهم إلى جوهرهم الأصلي دون إدراك منهم. ولكن هذا لا يعني أن الأبرو هو السبيل الوحيد في الوصول إلى هذا المبتغى، بل هو وسيلة لتخلية الأذهان من الأفكار المرهقة وتجريدها من الشوائب، أي إنه أداة مهمة للتركيز والإمعان.

والمقصود من كل ما ذكر، أن الفنان لا يسعى إلى التعبير عن نفسه أو عن الأشياء التي يرغب في التعبير عنها، بل إلى تجريد نفسه من كافة القيود الخارجية محاولاً إيجاد سبيل له في عالم المعنى. فقد حملت الفنون الإسلامية الأخرى هذا الروح أيضاً، وسعت إلى التعبير عن القدرة الإلهية في إبداع هذه الجماليات التي تحلّت بها الكائنات. إلى جانب ذلك فقد سيطر على فن الأبرو فكرة التجريد أو تجريد الفنان نفسه من عالم المادة والجنوح بها إلى عالم المعنى.

فن ذاتي وبعيد عن النمطية

إن فن الأبرو لا يسعى إلى نقل أفكار ومعتقدات وأحاسيس الفنانين المتوغلين في عوالمهم الداخلية. إنما يتطلب الأمر إرادة ورغبة قوية من الفنان وصرف جهود جاهدة منه، كما أن الأشكال والزخارف التي تحلت بروح ومبادئ الثقافة والحضارة الإسلامية، تؤدي رسالتها إلى المشاهد أو المتفرج من تلقاء نفسها. وقد تختلف إيجاءات هذه الرسالة من شخص لآخر حسب تصوره الشخصي.

التراثية الإسلامية التي انتمت إليها. وإذا انفصل فن الأبرو عن هذا التراث وهذه الثقافة فقدّ روحه وتحول إلى مجرد فن تشكيلي لا أكثر ولا أقل.

ولعل الذين مارسوا فن الأبرو وأوصلوه إلى يومنا هذا -وعلى رأسهم أهل التكية الأربكية- هم أهل التصوف ممن نهلوا من روح الثقافة الإسلامية وعاشوا في ظلها. لذا فلا يحق لنا أن ننسى الجانب التصوفي لفن الأبرو هذا. ولا يعني كل ما ذكرناه، أن نحصر فن الأبرو في إطار معين محدود، إنما هناك جوانب أخرى تعتبر امتداداً لهذا التراث وهو إعداد المواد الطبيعية التي تُستخدم في هذا الفن.

وليس المقصود من الارتباط بالتراث، أن نكرر نفس النماذج ونبقى على نفس الوتيرة النمطية، إنما المقصود أن نسير ضمن الأساليب التقنية والفلسفية التي تكوّن الأسس الفنية الإسلامية، أو أن ننجز عملاً فنياً يعتمد على عناصر التجريد والتنميق والتنوع والتفاني، مما يتيح لنا رؤية فنية تأملية تساعدنا على إدراك جمال الوجود وفهم الذات الإنسانية والحقيقة الربانية. أما بالنسبة للفكرة التي يمثلها برعم الورد في فن الأبرو فهي "الوحدة"، وأما الوردة المفتحة فتدل على "الكثرة" المنبثقة من هذه الوحدة. كما ترمز الوردة المفتحة أيضاً إلى تمام الكمال، وإلى سمو الروح، وإلى مراتب الإدراك التي تكمن بين "الوحدة" و"الكثرة" هذه. ولا يمكن أن تقدّم هذه المعاني في أشكال أو زخارف أخرى، كما لا يمكن أن يمثل شكل من الأشكال دور الوردة ويوحى بنفس المعنى والروح التي تحمله في ذاتها. في حين إن هذه المعاني الدلالية لا تُعرض في كل مرة بشكل مختلف، بل تستظل كل الأشكال والزخارف تحت ظل الوردة ومعانيها. ولعلنا إذا نظرنا إلى نبته الملفوف نرى أنها تمثل علاقة وطيدة جداً بين الوحدة والكثرة، بيد أن هذا التمثيل لا يرتقي أبداً إلى مستوى الوردة ودلالاتها.

أما النقاشات التي دارت حول أصالة فن الأبرو والتجديدات التي طرأت عليه فلم تأتِ بنتيجة ملموسة، وذلك لاختلافات حول الجذور والثقافة والهوية لهذا الفن. ولو كانت هذه النقاشات حول فلسفة الفن وحول مبادئه وأصوله بدلا من الأنماط والأشكال والتزيينات الظاهرية،



الفصل إلا للحوض"، أي إنه صاحب القول الفصل.

رحلة من الكثرة إلى الوحدة

ومن أبرز سمات الأبرو أنها توجه من الظاهر إلى الباطن ومن الكثرة إلى الوحدة، أي إنها توجه الإنسان إلى داخله وتجرده عن الظاهر ذهنياً وفكرياً ثم تسير به من الكثيرة إلى الوحدة. فالإنسان يتمكن بهذا الفن من الهروب من العالم الخارجي والتوغل في العالم الداخلي حيث جوهره وأصله.

إن فنان الأبرو هو الذي يقوم بتحويل الرسومات التي يرسمها على سطح الماء من صورة مؤقتة إلى دائمة، وذلك بنقلها إلى سطح آخر. وهو ما يدل على أن المخلوقات الفانية تصبح باقية عندما تنقل إلى سطح أو بُعد آخر. ولعل الأشكال المرسومة على سطح الماء هي تعبير عن الفناء كالحياة الدنيا تماماً، كما أن نقل هذه الأشكال إلى سطح الورقة إنما يدل على البقاء كالأخرة.

أما الوجود فله وجهان؛ وجه ينظر إلى البقاء ووجه إلى الفناء. وعلى الرغم من أن الأشكال لم تتكون من لقاء نفسها على سطح الماء، فإن هناك إرادة أوجدتها. والوجود أيضاً لا يتصف بصفة البقاء إلا إذا انتقل إلى سطح يمكنه من البقاء من قبل القدرة الإلهية والإرادة الربانية التي أوجدت فيه سمة الفناء. ولا يمكن للماء ولا للورق ولا للأشكال أن تقدر على تحقيق هذا البقاء، بل القدرة والإرادة المنبثقة من عشق الفنان والذي يمثل القدرة الإلهية بحق، هو من يحقق هذا البقاء. وإذا نظرنا إلى فن الأبرو من هذه الزاوية، ندرك أن الحوض يمثل الكائنات، والمادة البيضاء الصمغية (كتره) تمثل عالم الشهود، والفرشاة والألوان تمثل دائرة الأسباب، والفنان يمثل الإرادة والقدرة الإلهية.

ولا نبالغ إن قلنا أخيراً إن فن الأبرو هو فن تتجلى فيه كل جماليات ومحاسن الوجود، وما الوجود إلا تجلٍ من تجليات الجمال المطلق. ■

إن فن الأبرو فن ذاتي في كل مراحلها، كما أن جلب المواد اللازمة ثم تحضيرها واستخدامها تكون بمجهود ذاتية من الفنان. ولعل هذا الفن يتطلب أثناء التعليم أشخاصاً عدة، لكنه عند التطبيق يكون ذاتياً بالتمام. ذكرنا أن الفنان يعدّ الألوان بنفسه، إذ كلما أبدى مهارة في إعداد الأصبغة والألوان وقام بنقشها على الماء، ازداد الأثر قيمة وازداد الفنان متعة ولذة. أو بتعبير آخر فإن هذه المراحل العملية في فن الأبرو والاهتمام الذاتي، يجعل الفنان يتلذذ بأداء فنه ويستفيد منه ويزيد عليه ويجدد فيه. فن الأبرو هو فن يريح النفس ويجردها من العالم الظاهري، كما أنه فن تجريد يدفع المرء إلى الإمعان في التفكير ويشفي بذلك روحه وقلبه. إنه فن يجب أن يقدم إلى المهتمين به بنفس الروح ونفس المعاني الذي تحلى بها منذ القدم. كما أنه وسيلة لشفاء الروح وراحة النفس ورخائها وتغلغلها في العالم الداخلي عن طريق التجريد، ودواء للأمراض النفسية، ووسيلة لإزالة القلق والاضطراب.

الفصل بين الإرادة الجزئية والكلية

لا شك أن أصحاب البصيرة يشاهدون تجليات الإرادة الكلية والإرادة الجزئية في كل أطراف الحياة. إلا أنه ليس من السهل أن يشاهد العقل المتقيد بالأسباب تجليات هاتين الإرادتين في آن واحد. وإن فن الأبرو فن يوضح مكانة الإرادة الجزئية من الإرادة الكلية ويضع الفاصل البارز بينهما؛ إذ ليس للصدفة مكان في هذا الفن، ولا يمكن للفنان الذي يقوم بإنتاج عمل ما -وهو يراعي الأسباب- أن يعرض الصورة التي يفكر بها أو يخطط لها بالشكل الذي يريد بها بالتمام.

وقد نرى في بعض الأحيان أن الفنان يحصل على نتيجة فوق التي كان يتوقعها أو يتصورها. وفي الحقيقة هناك صورة معينة في مخيلة كل فنان، ولعل الفنان ينساق حسب الأشكال أو الصور التي تتكون نتيجة وقع قطرات الألوان على ماء الحوض، أي إنه لا يستطيع أن يتصرف بالألوان والأشكال كيفما يريد، حتى إنه لا يستطيع أن يحلل الشكل النهائي للصورة التي وضعها في مخيلته تماماً إلا بعد اقتراحها من الانتهاء. وقد وضع فنانو الأبرو مصطلح "لا تكون كلمة

(٥) أستاذ فن الأبرو / تركيا. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.

عندما تحرك الفراشة جناحيها

صالح آدم*

ت

توضع النظريات الفيزيائية لتقدم نماذج تشرح بنية الكون وكيفية عملها. وقد قام "نيوتن" والعلماء المعاصرون له بوضع أسس العلم الحديث، أو بالأصح بوضع أسس الفيزياء الكلاسيكية. وفي الكون -حسب هذه الفيزياء- نظام دقيق متداخل مع فوضى كبيرة. هذا النظام يعمل حسب آلية ميكانيكية دقيقة. كانت أجزاء الكون -حسب هذا النموذج- تتأثر وتؤثر بعضها في بعض بقوى مختلفة، وتحرك هذه الأجزاء ضمن حركات معينة تحت تأثير هذه القوى وتحت تأثير وضعها في البداية. ونظرًا لقيام الفيزياء الكلاسيكية بحساب الحوادث الفيزيائية المختلفة -التي تبدو وكأنها لا رابط بينها- بدءًا من حركة كرة البيلارد إلى حركة الأجسام الفضائية، ومن ظاهرة انتقال الحرارة إلى التمرجات الصوتية حسابًا صحيحًا بقوانين قليلة (القوانين الثلاثة لـ "نيوتن"). فقد أصبحت تلك الفيزياء حقيقة مسلّمًا بها، لا تختمل أي نقاش أو شك فيها طوال عصور ثلاثة. وهذا النجاح الكبير بهر أعين المفكرين وأثر على نظرتهم للعالم، بل دعاهم إلى محاولة وضع نظريات مشابهة في علوم الاجتماع.

نقد الفيزياء الكلاسيكية

ولكن النظرة إلى العالم التي شكّلتها الفيزياء الكلاسيكية تعرضت في بداية القرن العشرين إلى نقدين، جاء أحدهما من النظرية النسبية التي وضعها "أنشتاين" ونفى فيها وجود الزمان المطلق والمكان المطلق، ووضع بدلًا منهما زمانًا ومكانًا يختلفان حسب وضع الشخص



المراقب، وأهمما يتغيران حسب مقدار وكمية الكتلة الموجودة في حوار ومحيط الأشياء. أما النقد الثاني فجاء من "النظرية الكمية" (Quantum Theory) التي قامت بمعارضة أساس من أسس العلم وهو مبدأ "السبب-النتيجة". وذكرت بأنه لا يمكن إجراء عملية قياس دقيقة في أي منظومة دون التأثير فيها وتغييرها.^(١)

ويجب هنا ملاحظة أمر هام وهو أن ظهور بعض أخطاء الفيزياء الكلاسيكية لا يعني أنها باطلة تماماً وخاطئة ولم تعد لها أي أهمية أو دور؛ لأن النظريات الفيزيائية هي نماذج في نهاية المطاف توضع لشرح الحقائق، كما تستطيع الفيزياء الكلاسيكية تفسير وحل معظم المسائل اليومية التي نواجهها بدقة كبيرة. ولهذا السبب أظهرت التجارب والملاحظات صحتها طوال عصور ثلاثة. كما نستطيع بها حساب أوقات كسوف الشمس وكسوف القمر ورحلة صاروخ في نظامنا الشمسي وغيرها من الأحداث الفيزيائية والمادية بدقة كبيرة.

ذكرت النظرية النسبية أن نظرية نيوتن لا تكون صحيحة في السرعات الكبيرة التي تقترب من سرعة الضوء، وكذلك في الأجسام الفضائية الهائلة الكتلة كالنقوب السوداء والنجوم النيوترونية التي تملك قوى جذب كبيرة. وكما ذكرت النظرية الكمية فإن نظرية نيوتن لا تصح في تفسير الحوادث الجارية على المستوى الذري، أي إن النظرية النسبية والنظرية الكمية تصح في السرعة الاعتيادية في حياتنا -حتى سرعة الصاروخ لا تبلغ جزءاً من ألف جزء من سرعة الضوء- وفي الأحجام التي تزيد على 10^{-10} سم وتكون نتائجها مساوية لنتائج الفيزياء الكلاسيكية.

نقد "الحتمية" وظهور نظرية الفوضى

وفي ستينيات القرن الماضي تلقّت النظرية الحتمية نقداً ثالثاً من علم بدأ ينمو ويتطور. كان هذا العلم يبحث عن ظواهر "الفوضى" التي لاحظها العلماء في العديد من الحوادث بدءاً من ديناميكية السوائل إلى الظواهر الجوية إلى بيولوجيا السكان إلى النظم الاقتصادية. والسبب الذي أدى إلى ظهور "الفوضى" كفرع من فروع العلم هو أن العلماء الذين كانوا يعملون في ساحات مختلفة لاحظوا عند بحثهم عن حلول للمشاكل التي تظهر أمامهم أنهم يرون حلولاً في شكل نماذج تكون متشابهة؛ حتى أنهم توصلوا إلى حلول مشتركة تعود لمسائل مختلفة. ظهر هذا الأمر ليس في الساحات العلمية التي تتطلب اختصاصات معينة، بل في الساحات

التي تتقاطع فيها ساحات بعض العلاقات العلمية. رأى العلماء هنا أن النماذج التي تشرح التصرفات التي تبديها المنظومات المعقدة نماذج متشابهة. والمنظومات المعقدة تتألف من أجزاء عديدة جداً، يؤثر كل جزء في الأجزاء الأخرى، ويتأثر هو أيضاً بها، وهناك ساحات حرة عديدة فيها؛ أي إن هناك احتمالات لتصرفات عديدة لها، وهي عادةً منظومات مفتوحة^(٢) تدخل إليها المواد والطاقة وتخرج منها، أي ليست منظومات مغلقة. ومن أمثلة هذه المنظومة هي المنظومات البيئية التي تُشكّلها بعض أنواع الأحياء في منطقة جغرافية معينة، والعناصر الجوية المختلفة الموجودة معاً كالمقادير المختلفة من الضغط الجوي والرياح والحرارة وأنواع النباتات التي تغطي تلك المناطق، أو المنظومات المعقدة المتشكلة من مجموعات كبيرة من الخلايا العصبية المتخصصة التي تعمل معاً في أدمغتنا بتلاؤم دقيق.

والعلماء يعملون حالياً على منظومات أقل تعقيداً من المنظومات المذكورة أعلاه، مثل معدل التغير السنوي في عدد نوع معين من الأحياء في منطقة معينة، أو درجة انسيابية سائل يملك لزوجة معينة في أنبوب، أو التموجات الحاصلة في البورصة لسعر سلعة من السلع... هذه هي المسائل أو المشاكل التي يتناولها العلماء حالياً كبداية لحل مشاكل ظواهر "الفوضى".

ولكن العلم -لنأخذ الفيزياء مثلاً- على الرغم من أنه قَطَعَ مسافة كبيرة في ساحات عديدة بدءاً من الأجزاء دون الذرية إلى المجرات الهائلة، إلا أنه لم يستطع وضع نظرية تشرح الحركات المعقدة لسائل ذي لزوجة معينة يسيل في أنبوب، ولا حساب حركات الدوامات والاضطراب الذي يظهر فيها بعد سرعة معينة. وعلى الرغم من أننا نملك معلومات بدرجة ما حول كيفية عمل بعض الظواهر مثل كيفية تزايد أعداد الأحياء، أو كيفية التطور الاقتصادي، إلا أننا لا نستطيع حدس أو معرفة كيفية تطور هذه الظواهر وكيفية تغيرها، وعلى أي أساس يحصل هذا التغير بشكل قاطع. ولذا فهناك علم ولد جديداً يحاول وضع أسس علمية لمثل هذه المنظومات وخصائصها المشتركة ويهدم الجدران الاصطناعية بين العلوم. والسبب الكامن وراء عدم وضع تعريف عام يقبل به الجميع لهذا الفرع الجديد من العلم الذي ندعوه بـ "علم الفوضى"، هو أن إطاره واسع جداً وهو يشمل مواضيع عديدة جداً وحوادث ذات أبعاد مختلفة، لذا يجب تناولها بمفاهيم جديدة ومتطورة، لأن تاريخ هذا الفرع العلمي حديث لا يتجاوز ٤٠-٥٠ سنة.



شرح مفهوم "الفوضى"

إن أردنا التعبير عن مفهوم "الفوضى"، قلنا: إنه يعني عدم النظام واختلاط الحابل بالنابل والانفلات. ولكن تم إغناء مفهوم هذا الفرع الجديد من العلم بإضافة معان هندسية وعلمية له، لذا فلا يمكن شرح مفهوم "الفوضى" بعدة جمل. ولكن يمكن شرح كيفية ظهور "الفوضى" وفي أي الظروف تظهر وما النتائج التي تتولد عنها. عندما نقوم بهذا نحصل على فكرة وصورة لهذا المفهوم.

والذي أدى إلى زيادة الاهتمام بمفهوم "الفوضى" وعده انقلاباً في العلم، هو أن نظاماً معيناً يسير حسب قواعد معروفة ويتطور بشكل معلوم، فإذا به يتصرف فجأة بشكل فوضوي. لنأخذ مثلاً حول عدد نوع من أنواع الأحياء يعيش في جزيرة. هذا العدد مرتبط بعوامل عديدة؛ منها سرعة التوالد، ومقدار الأغذية الموجودة في الجزيرة، وعلاقة وتأثير الأحياء الأخرى الموجودة حوله... إلخ. وكذلك مثال عدد السيارات التي ترد إلى محطة بنزين معينة، أو عدد المراجعين من المرضى لقسم الطوارئ في أحد المستشفيات وساعات هذه المراجعات. في هذه النماذج تعد العوامل المختلفة ثابتة ولا تتغير مع الزمن، وذلك من أجل سهولة الحساب. ومع هذا نرى نتائج غير متوقعة حتى في أبسط هذه النماذج، فمثلاً إن كان معامل (Coefficient) التكاثر الذي يعبر عن نسبة التكاثر ونسبة الموت وضبط التوازن بين التكاثر والموت، أكبر من حد معين استحال حساب تغير أعداد ذلك الحي حسب السنوات بأي معادلة من المعادلات. لأن عدد النفوس في كل سنة سيأخذ مقداراً متغيراً، أي إن ظاهرة ما تتبع عادةً قوانين (السبب-النتيجة) أي "الحتمية"، يمكن أن تنقلب إلى ظاهرة غير منتظمة وغير متوازنة. وأمر آخر مشابه يظهر في حركة انسياب سائل ذي لزوجة معينة (أي يولد انسيابه قوة احتكاك)، فالسوائل تتبع القوانين الديناميكية لنيوتن في حالة الانسياب الاعتيادي بشكل جميل، ولكن ما إن تزيد سرعة الانسياب عن حد معين حتى تتولد الدوامات وحركات مضطربة وفوضوية لا تتبع أي قانون.

ظهور الفوضى

يرتبط ظهور الفوضى في أي منظومة بحدود وقيم متغيراتها من جهة وبجالة بداية تلك المنظومة وتركيبها من جهة أخرى. وتظهر الفوضى عادة عندما تكون المنظومة غير مستقرة، (أي عندما

لا تكون لديها قابلية إنتاج طاقة، وكذلك عندما تكون بعيدة عن الاستقرار الديناميكي الحراري). والأهم هنا عدم كون المنظومات خطية، لاحتمال ظهور الفوضى في منظومة غير خطية وإن كانت المنظومة بسيطة.^(٣) والمنظومات غير الخطية لها علاقة بمشتقة المعادلة الرياضية التي تشرح العلاقات فيها. لذا فإن حلها يكون أصعب من حل المعادلات الخطية، بل يستحيل أحياناً هذا الحل؛ لأن العلاقات في المنظومات غير الخطية تتبدل في لحظة التغير. فالحالات التي يكون فيها الاحتكاك مرتبطاً بالسرعة أو عدد السكان في حالات ديناميكية هي حالات تكون فيها المنظومة خطية. فإذا كان الاحتكاك مرتبطاً بالسرعة وتغير السرعة بالاحتكاك المؤثر على سرعة الجسم، فإن تغير السرعة مرتبط إذن بالسرعة نفسها. في مثل هذه الحالات وبخاصة عندما تكون المنظومة مفتوحة، تظهر تصرفات وتغيرات غير متوقعة. فمثلاً تتغير مقاومة الهواء لحركة البندول بمكعب سرعة البندول، فإن تم تسليط قوة من الخارج إلى هذا البندول فإن هذه القوة -بعد حد معين من مقدارها- تؤدي إلى حركة فوضوية للبندول الذي يقوم بحركات غير متكررة بعدد لانهائي، ولا يمكن معرفة المدارات التي يرسمها هذا البندول ضمن مستوى معين ذي بُعدين. لذا فإن من خصائص النظم الفوضوية أنها تقوم بتحقيق جميع البدائل المختلفة والممكنة عندما يكون هناك زمن كافٍ.

قانون الأنثروبيا

تناولت الفيزياء الكلاسيكية -في أغلب الأحوال- النظم المتوازنة، ووضعت قوانين الديناميكية الحرارية حسب هذه النظم. أحد هذه القوانين -وربما أهمها- هو قانون "الأنثروبيا". والأنثروبيا يعد مقياساً للفوضى، وهو يزداد على الدوام في النظم المغلقة. فإن طبقنا هذا القانون على الكون ككل نقول: إن الكون كان في بدايته منظماً بدرجة كبيرة، ثم بدأت الفوضى بالزيادة فيه، وفي النهاية عندما تتساوى الحرارة بين كل أجزائه^(٤) تتوقف جميع الفعاليات والتفاعلات. أما النظم المفتوحة، أي النظم التي تأتي إليها الطاقة والمادة من الخارج، فهي نظم غير مستقرة في الأغلب، وهي -حسب الديناميكية الحرارية- نظم أهمل تدقيقها، كما أن تدقيقها صعب بدرجة كبيرة. وقد اهتم العالم "بريغوجين" وأصدقائه بهذه النظم وتوصلوا إلى نتائج تسترعي الانتباه. فالدوامات التي تحصل في نهر سريع الجريان، والدوامات الهوائية،



والأعاصير التي تحصل في الطبقات الجوية، والأشكال المعقدة التي يشكلها بندول متحرك، والأشكال الزخرفية المعقدة التي تتشكل بعد بعض التفاعلات الكيميائية، أمثلة على البنى المعقدة التي تُشكلها المنظومات غير المستقرة نتيجة قوى خارجية تؤثر فيها. ولكن يجب معرفة التعاريف العلمية والتقنيّة للمصطلحات الواردة هنا من أمثال "المنظومة" و"المعقد" و"النظم المستقرة وغير المستقرة" وملاحظة معاني هذه المصطلحات والتعاريف. فمثلاً يعرض لنا نهر يسيل ببطء سيلاً هادئاً ومستقراً، ولكن ما إن تزيد سرعة التدفق عن حد معين حتى تتشكل الدوامات فيه، أي تظهر هنا بُنى جديدة وهي بنى الدوامات. ولما كانت هذه البنى الجديدة معقدة التركيب وأكثر ديناميكية، لذا يقال: إن النهر أصبح أكثر نظاماً من حاله الأول القريب من الركود، أي إن درجة النظام في أي منظومة تقاس بمقدار تعقدها وليس ببساطتها. ولا يعني التعقيد هنا، الفوضى وعدم النظام، بل هو مصطلح يعبر عن ارتباط أجزاء عديدة ارتباطاً بنوياً ضمن علاقات خاصة لتحقيق مهمات معينة. ولا شك أن هذه المصطلحات لا تزال مبهمة من الناحية العلمية، ولم يتم التوصل حولها إلى إجماع في القبول. ولكن هناك مساع عديدة تبذل حالياً حولها، وهي محل اهتمام خاص. فإن أردنا التلخيص نقول بأن الاحتكاك الذي يعد في نظر فيزياء نيوتن (أي الفيزياء الكلاسيكية) عنصراً ضاراً يعوق الحركة والطاقة ويعمل ضدّها.. هذا الاحتكاك يؤدي إلى تشكيل منظومات جديدة وبنى معقدة في بعض المنظومات المفتوحة وغير المستقرة. ثم إن الاحتكاك والمقاومة وغيرها من القوى غير المرغوب فيها عادة قد تلعب دوراً في توليد النظام، وهذا يشير إلى وجود الجمال والفائدة في كل شيء بالمعنى المطلق.

خواص النظام الفوضوي وتجربة لورنز

أهم خاصية من خواص النظام الفوضوي كونه مرتبطاً بظروف بدايته بشكل حساس، وأفضل مثال على هذا ما نراه في التقلبات الجوية. ففي الستينيات عندما بدأ استعمال العقول الألكترونية (الكمبيوتر) لأول مرة حاولوا الوصول إلى تخمين التقلبات الجوية بوضع الظروف الجوية المختلفة في أنموذج ووضع برنامج لحل هذا الأنموذج. قام أحد أخصائيي الأنواء الجوية واسمه "أدوارد لورنز" بوضع برنامج بسيط أراد من ورائه الوصول إلى تخمين التقلبات الجوية. وما حدث له كان إشارة إلى ولادة علم جديد. كان "لورنز" يعلم أن التقلبات الجوية تجري حسب قوانين معينة. لذا وضع في جهازه للعقل الألكتروني أنموذجاً للتقلبات الجوية، ووضع ١٢ معادلة مرتبطة بتقلبات الحرارة والضغط وسرعة الرياح... إلخ. كان يأمل منها حل العلاقات الموجودة بين هذه العوامل المتغيرة والمؤثرة في التقلبات الجوية والتوصل إلى تنبؤ صحيح للأحوال الجوية. فقد تم التوصل مثلاً إلى تواريخ ظهور مذب "هالي" وموقعه بالنسبة للعالم في كل مرة بشكل مسبق، وذلك باستعمال قوانين نيوتن بعد حساب كتلة الشمس وكتل كواكب المجموعة الشمسية ومواقعها وسرعاتها...



إلخ، لذا خطر بالبال بأننا إن قمنا بمعرفة الشروط المختلفة للأنواء الجوية -التي تشكل منظومة أعقد من مثال مذنب "هالي"- من خلال تثبيت الآلاف من أجهزة قياس الحرارة والضغط وغيرهما من العوامل المؤثرة في الأنواء الجوية في مختلف الأماكن، ومعرفة هذه الظروف والشروط في فترة زمنية محددة، وأدرجنا هذه المعلومات في العقل الإلكتروني، استطعنا التنبؤ مسبقاً بالأحوال الجوية المتوقعة بعد فترة أو بعد زمن محدد. والعنصر الوحيد الذي يمكن أن يؤدي إلى مشكلة هو مدى صحة المعلومات والقياسات التي نحصل عليها في البداية، والبعد قدر الإمكان عن أخطاء القياسات الأولية. ولكن كان من أهم فروض العلم الكلاسيكي ما يأتي:

"إن كنا نعلم الوضع الأولي لمنظومة ما بشكل تقريبي، وكنا نعرف أيضاً القوانين السارية فيها، استطعنا معرفة التصرف التالي للمنظومة بشكل تقريبي". يقول أحد علماء الفيزياء النظرية: "من أهم أسس التفكير العلمي الغربي هو أننا عندما ندقق حركة كرة بيلاردو فوق منضدة، نستطيع أن نحمل حركة سقوط ورقة في كوكب في مجرة أخرى، لأنه يمكن إهمال التأثيرات الصغيرة جداً." واستناداً إلى هذا الأساس قال علماء الأنواء الجوية بأن المعلومات التقريبية ستعطي لنا معلومات تقريبية أو نتائج تقريبية عند حساب التوقعات الجوية.

كان "لورنز" يفكر هكذا أيضاً، لذا سجل المعلومات الأولية في جهازه مراقباً ما ستكون عليه الأحوال الجوية. وفي أحد الأيام أوقف حساباته لأنه كان يريد فحص بعض أجزاء نواحي تطور وتغير الأنواء الجوية. ثم عاد إلى جهازه وأدخل فيه النتائج التي توصل إليها حتى تلك اللحظة. شغل جهازه ثم خرج للترويج عن نفسه وشرب القهوة. وعندما رجع بعد ساعة رأى شيئاً لم يكن يتوقعه، فالخطوط البيانية التي كانت تشرح وتشير إلى حالة الأنواء الجوية منذ قيامه بوضع حساباته، كانت تختلف عن الخطوط البيانية الجديدة، أي إنها اختلفت بعد مرور فترة زمنية عليها، وكان هذا يؤدي إلى اختلاف كامل في التوقعات بعد عدة أشهر. فكّر في الوهلة الأولى أن هناك عطلاً ما في جهازه، ولكنه فهم ما حدث بعد حين. تذكر أنه عندما ألقم جهازه بالمعلومات استعمل معلومات تقريبية؛ فمثلاً بدلاً من أن يلقم جهازه بعدد (٠,٥٠٦١٢٧)، ألقمه بعدد تقريبي له هو (٠,٥٠٦). وهذا التقريب الذي يبلغ أقل من جزء من ألف جزء تقريبا مقبول

في الأقمار الصناعية المخصصة للأنواء الجوية. وقيام هذه الأقمار بتسجيل الحرارة بكفاءة جزء من ألف جزء من درجة الحرارة يعد نجاحاً كبيراً. غير أن خطأً في الأرقام وفي المعلومات يبلغ جزءاً من ألف جزء يكبر بمضي الوقت حتى يبلغ هذا الخطأ مائة بالمائة، أي إن جميع المعلومات الأولية المسجلة تصبح دون أي فائدة جراء هذا الخطأ الصغير أو هذا التقريب.

لذا فلنحسب تقلبات الجو المستقبلية بدقة، علينا أن نعرف القيم الأولية بدقة كبيرة. وهذا ينطبق على أي منظومة ديناميكية أخرى، غير أنه بينما يكبر الخطأ بمزور الزمن في النظم الخطية بشكل خطي، يكبر الخطأ في النظم غير الخطية بشكل يتعلق بمعادلة المنظومة، أي إن زيادة الخطأ في النظم غير الخطية تكون بشكل متسارع جداً بحيث يستحيل تخمين التقلبات الجوية لزمن طويل؛ لأن الخطأ يكبر هكذا في منظومة من الدرجة الثانية (١٠)، (١٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠٠، إلخ).

فكّر بعض الباحثين بأننا إن استخدمنا نماذج متقدمة للأنواء الجوية وأجهزة كومبيوتر متقدمة جداً سنحصل على تخمينات أفضل ولمدة أطول. لذا استخدموا في الولايات المتحدة الأمريكية كومبيوتراً متقدماً جداً اسمه (Control Data Cyber ٢٠٥) حيث يستطيع إجراء ملايين العمليات في الثانية الواحدة، بينما كان الكومبيوتر البدائي الذي استخدمه "لورنز" يستطيع إجراء ٦٠ عملية فقط في الثانية. وبينما اكتفى "لورنز" باستعمال ١٢ معادلة، فقد حُمل الكومبيوتر العملاق (٥٠٠,٠٠٠) معادلة. وتناولت هذه المعادلات حساب كل المتغيرات المتعلقة بالجو بدءاً من تغير الحرارة نتيجة تكاثف الرطوبة، إلى تأثير الجبال على هبوب الرياح... إلخ. واهتلت المعلومات وقياسات المتغيرات الجوية (حرارة، ضغط، رياح... إلخ). من جميع الولايات الأمريكية ومن الطائرات في الجو ومن الأقمار الصناعية ومن السفن إلى هذا الكومبيوتر العملاق. ومع كل هذه المحاولات والجهود فلم ينجح تخمين التقلبات الجوية إلا لمدة يومين أو ثلاثة أيام فقط. ثم ابتعدت هذه التخمينات بعد هذه المدة عن الواقع. أما بعد أسبوع فلم تعد للتخمينات أي قيمة.

نظرية تأثير الفراشة

وهناك مصطلح "تأثير الفراشة" وضع بشكل نصف جدي ونصف هزلي، وهو يقول بأن فراشة عندما تهر جناحها في



"طوكيو" فليس بمستبعد أن تحدث هذه الهزة عاصفةً في "نيويورك" بعد شهر. وذلك لبيان كيف أن الأنواء الجوية نظام فوضوي ومعقد وتؤثر فيه عوامل عديدة جداً، وكيف ولماذا يستحيل تخمين التقلبات الجوية بعد فترة معينة بسبب تضاعف التأثيرات والمتغيرات والأخطاء الدقيقة والصغيرة جداً، وتضخمها بسرعة كبيرة. والأمر الذي نريد التنبيه إليه هو أن العواصف لا تتشكل بتأثير التيار الهوائي التي تحدثها الفراشة، لأن الطاقة موجودة في الجو، ولكن المهم توجيه هذه الطاقة. أي إن حدوث تغيرات عديدة في الجو مرتبطة بالظروف والشروط الموجودة في بداية النظام بشكل حساس جداً. وهناك عملية حسابية أخرى تذكر أن غياب تأثير قوة جاذبية إلكترون واحد في مجرة أخرى في الطرف الآخر من الكون، قد يحدث بعد ثلاثة أو أربعة أشهر عواصف في كوكبنا. وكما ظهر آنفاً، فقد تبين خطأ المقولة العلمية الكلاسيكية الغربية: "إن علمنا القوانين الأساسية المؤثرة في منظومة، وكنا نعلم الظروف الأولية لها بشكل تقريبي نستطيع حساب التطورات المتوقعة لها بشكل تقريبي حسب الفترات الزمنية القادمة". لأن بعض المنظومات مرتبطة بشروطها وظروفها الأولية ارتباطاً وثيقاً وحساساً جداً. لذا فأنت لكي تعرف ما ستؤول إليه هذه المنظومة فيما بعد، يجب أن تعرف ظروفها الأولية والشروط المحيطة بها معرفة خالية من أي خطأ وبشكل مفصل تماماً. وبما أن الأنواء الجوية منظومة من هذه المنظومات، فإننا مهما حاولنا جمع المعلومات الحساسة والدقيقة حولها، فهناك مقدار زمني إن مرّ عليها فلا تكون لهذه المعلومات أي قيمة. ومن المستحيل أن يزيد هذا المقدار الزمني على بضعة أسابيع في أي حال من الأحوال. لذا فإننا نعلم الآن لماذا كان هطول الغيث -وهو جزء من الأنواء الجوية- في القرآن الكريم يعد من "المغييات الخمس". من ثم فإننا نقول بأن الحقائق القرآنية لا تشيخ ولا تبلى بمرور الزمن، بل تتوضح أكثر، وإن تقدّم العلم في المستقبل سيقدم لنا فهماً أعمق لما جاء في القرآن الكريم. ■

(٥) باحث في جامعة الفاتح / تركيا. الترجمة عن التركية: أورهان محمد علي.

الهوامش

- (١) فمثلاً عندما تريد مراقبة حركة إلكترون فإنك لن تشاهد الإلكترون إلا إذا أرسلت لها فوتوناً ضوئياً، ولكن هذا الفوتون عندما يصطدم بالإلكترون يغير من مكان وموضع الإلكترون، فلا يمكن معرفة موضع الإلكترون وعزمه الحركي معاً. (المترجم)
- (٢) مثلاً بعد الكون نظاماً مغلقاً لأنه لا تأتيه طاقة من خارجه، أما الأرض فتعد نظاماً مفتوحاً لوصول طاقة الشمس إليها من الخارج. (المترجم)
- (٣) المنظومة الخطية: هي المنظومة التي يكون فيها المجهول من الدرجة الأولى، مثال؛ $x=y+5$ ، والمنظومة غير الخطية: هي المنظومة التي يكون فيها المجهول من الدرجة الثانية أو أكثر، مثال؛ $y=x^2+x+20$ أو $y^3+x^2=x+5$
- (٤) لأن هناك انتقال مستمر للحرارة في الكون من الأجسام الساخنة -كالشمس- إلى أجزاء أبرد منها. ويستمر هذا الانتقال حتى تتساوى درجة الحرارة في جميع أرجاء الكون، وهذا يعني موت الكون. (المترجم)



بروحك ارتقي وإلى أعلى الشماثل خذها.. جدد مناقبها واشحن
طاقات عليائها.. ولأنها للخلود مرصودة وبالأبد موعودة..
فاحفظها من الزلل وصنها من الخطأ وعنهما طرفة عين لا تغفل..
* * *

المسوف

رمضان كريم*

- انهض يا بني.. ما هذا الكسل؟ نحن الآن في الظهيرة..
أنسيّت أم أرى أنك تناسي.. الامتحانات على الأبواب..
قم وذاكر دروسك يكفيك كسلاً..
- حسناً يا أمي استمعتُ إليك.. اتركيني الآن، دعيني
أكمل نومي، وسأنهض بعد ذلك وأذاكر كما تريدن!..
عادة "التسوف" هذه صارت طابع حياته، لم يستطع
نبذها وراء ظهره حتى وهو طالب جامعي، حيث كانت

أكثر من مرة ثناءب، تمطّى، فرقع أصابع
يديه، فرك عينيه.. وهمّ بالنهوض وترك
الفراش.. غير أن شيئاً ما كان يمسك
بتلابيئه ويمنعه من الحراك.. أوه.. هذه أمي.. أسمع وقع
خطواتها على السلم.. وكالعادة ستنهال عليّ توبيخاً وتوقر
سمعي بمواعظها.. ما أطيب الفراش وما أطيب الدفء الذي
يشيعه في نفسي وجسمي.. ها هي تقف قبالة سريري:

أ



سبباً في تأخره عن زملائه في كل شيء. وفي أحد الأيام رجاء أحد زملائه أن يصحبه إلى الجامع لأداء فريضة الجمعة، فوجئ بهذا الرجاء. وعلى الرغم من أنه يدرك أن "الموت" إذا جاء فلا يمكن أن يقول له: انتظر قليلاً، أو من فضلك تعال غداً حتى أستعد لاستقبالك.. فقد ردّ على زميله:

- اذهب أنت اليوم، ولكني أعدك أني سأبشر الصلاة في وقت لاحق وربما اصطحتك وقتذاك إلى الجامع...

وگادر كليته بعد فشله سنتين متتاليتين، وهام على وجهه لا يدري ماذا يفعل، ولكن واحداً من زملائه اصطحبه إلى صديق له من رجال الأعمال ورجاه أن يلحقه بعمل ما ليعتاش منه.

مضت الأيام والسنون فإذا به يتزوج ويرزق بأطفال يقوم بتربيتهم ورعايتهم. وحين نصحه صديقه أن يزيد من اهتمامه بأطفاله ويوجههم الوجهة الحميدة تعلّل - كما هو شأنه دائماً - بأن أطفاله لا زالوا صغاراً وأنه سيفعل ذلك عندما يكبرون قليلاً. وعندما كبر هؤلاء الأطفال وباتت تؤرقهم أسئلة كثيرة لا يعرفون جواباً عنها، ويسألون ويلحون بالسؤال على والدهم، اكتشف الوالد نفسه، وعرف أنه لم يكن على دراية ليحجب أولاده عما يختلج في أذهانهم من إشكالات في الدين والحياة، وأنه خالي الوفاض لا يكاد يعرف شيئاً مما ينبغي أن يعرفه كل أب للأخذ بأيدي أبنائه إلى الطريق المستقيم. لم يجد بداً من التردد على المكتبات والاستعانة ببعض الكتب التي يمكن أن تزوده بما هو يفتقر إليه من علم وثقافة. اختار بعضاً من هذه الكتب وأراد أن يدفع أثمانها، توقف قليلاً وتردد وقال في نفسه: "إن ما معي من النقود لا تغطي ثمن هذه الكتب، إذن سأشتريها عندما تتوفر لي النقود اللازمة"، ثم ترك الكتب ومضى لشأنه. وعندما توفرت له النقود لم يخطر بباله العودة إلى المكتبة واقتناء الكتب التي اختارها في المرة الأولى.

وبعد فترة طويلة، وبينما كان ذاهباً لعمله، شاهد متسولاً معاقاً، وفكر في إعطائه بعض النقود إلا أنه قال في نفسه: "أستطيع أن أعطيها له عند العودة".

وبينما كان يقترب من عمله سمع صوت المؤذن،

وكان أحد أقربائه قد توفي.. اغتم من داخله وفكر قائلاً: "إن الموت سوف يصيبني ذات يوم، والعمر يمر بسرعة..". ثم سأل نفسه: "ألم يحن الوقتُ بعدُ لدفع متطلبات روعي المعذبة؟".. كان رده بلا تردد: "نعم، ولكن المشاغل في هذه الفترة كثيرة للغاية، ليأت فصل الصيف وتنخف من مشاغلنا عندها نفكر، كما أن أيام الله لا تنتهي!" وبينما كان يمر في طريقه بين الأكواخ أثناء العودة من العمل شعر في داخله بمرارة، وتذكر سنوات المشقة، "يا إلهي! ما سبب تلك الدموع؟".. لم يتحمل ثقل المشاعر أكثر من ذلك، ففاضت عيناه بالدموع، وعندما نفذت طاقة تحمله جثا على ركبتيه واستمر في البكاء.

وتصدعت روحه بأحاسيس لا يمكن وصفها.. مسح عينيه ونتم قائلاً: "لعلني أستطيع تدوين هذه المشاعر والأحاسيس على الورق لأنها تشكل صفحة مهمة من تاريخ حياتي" ولكنه أردف يقول: "ذات يوم سأفعل ذلك".

كان يوماً يساوي ألف شهر، ولكن عليه أن يعلم أنه لكي يتمكن من الوصول لذلك اليوم، يجب أن يعرف قدر كل يوم، وأن يبذل جهده في كل خطوة.

وذات يوم خرق صوت المؤذن سكون الحي، فأقبل الأصدقاء من كل مكان حتى امتلأ صحن المسجد بهم لحضور صلاة الجنازة. كان معروفاً لدى أهل الحي.. ذاك الرجل الذي فقد حياته أثناء ذهابه لعمله نتيجة ارتطامه بسيارة كان يقودها سائق مستهتر.. اصطفوا للصلاة عليه، وأثناء الصلاة فكر صديق له كان يحبه وينصحه دائماً بأن لا يؤجل عمله لغد.. ذكر الرجل الذي لم يعط لأيامه أهمية وأمضاها بقوله دائماً: "يوماً ما".

وعندما بدأت الجماعة في التفرق اقترب صديقه من التابوت، ووضع يده عليه بالرغم من نظرات الإمام وهمس قائلاً: "أواه يا صديقي ألم تكن تعلم أن الموت يطاردنا وأن لا مناص منه، وها أنت اليوم تلقاه كما سنلقاه نحن من بعدك"...

(٥) كاتب وأديب تركي. الترجمة عن التركية بنصرف: د. سمير زهران، أديب إبراهيم الدباغ.



في القلب يا حراء

عادل سعيد القدسي*

ق

من أيّ رحم مبارك تخرجين؟ إنه ذات الرحم المبارك الولود، رحم مكة والمدينة ودمشق وإسطنبول والقاهرة وإسلام أباد... جئتُ أنا "حراء".. ملبياً دعوتها يحدوني شوق وشوق عارم نحو بلد الإسلام وقلعته الحصينة تركيا.. قطعْتُ نحو "حراء" مئات الكيلومترات وكلّي رغبة لمعرفة هذا البلد الحبيب الذي انقطعْتُ أو تقطعت به السبل نحو أهله وإخوانه، مثلما كان يحدوني للمجيء ويدفعني رغبتي كرجل فضولي أقصد إعلاميّ هو أن أدس أنفي -المعذرة- (أريد قلبي) في شأن هذه المحلة الحبيبة إلى قلبي، وأن أجد منها "موطئ قلم" أشارك فيها كاتباً أو مراسلاً.. أو -حتى- محرراً ومن قلب المعركة "تركيا".. وهو حلم -لو تعلمون- عزيز.. وما ذلك على الله بعزيز.. وفي ندوة "حراء".. برغم الطقس البارد.. برغم غربة الوجوه وتنائي الديار شعرتُ بدفء عجيب.. بخنان وحب.. "حراء" التي اقتحمت بنا فندق "خمسة نجوم" حولت ذلك الفندق بما فيه بكل ما فيه إلى نجوم لا تعد ولا تُحصى.. ما أحيلاها تلك الوجوه المؤمنة التي جاءتنا من بلد الإيمان والخير والعطاء من تركيا ومن القاهرة ومن الجزائر.. ما أحيلاها هذه المجلة تتقدم هذا الموكب الكريم ويقدم أبنائها حفلة بلغة راقية.. لغة فصيحة تكاد تغيب عن عالمنا العربي القح!! لك الله "حراء".. لك الحاضر وكل المستقبل.. ووعد نقطعه أن نكون مع "حراء".. نلبي دعوتها.. ننشر فكرتها.. وهو أقل الواجب.. وأضعف الإيمان.. ■

قبل أشهر من الآن أتتني "دعوة حراء". دعوة لحضور ندوة في صنعاء حول "حراء" المجلة - أعني- لا حراء الغار.. وأنا أنظر في تلك الدعوة الكريمة.. أقلبُ فيها تملكنتي حينها مشاعر لذيدة، أحاسيس رائعة.. شدتني تلك المشاعر والأحاسيس من جميع أقطاري.. نقلتني على جناح الحب من دنيائي التي أستقيم عليها.. دنيا الناس والدواب.. إلى دنيا غير الدنيا، إلى عالم غير العالم، من عالم البشر إلى عالم الملائكة انتقلت.

يا الله يا الله ما أحيلاه ذلكم الانتقال، ذلكم التحليق.. من عالم بائس يائس تعيس مليء بالصراعات بالتناقضات، إلى عالم طاهر شفاف.. بلون الحب يتشكل، و"حراء" -إن كنتم لا تعلمون- مجلة ورقية مصقولة.. وبالألوان حملت هذا الاسم الرائع، وحملت معه شهباً كبيراً به.. على نحو ما قيل: "لكل امرئ من اسمه نصيب".

ما إن تصافح عينيك أو تصافحها حتى تلتهمها.. و"من الغلاف للغلاف".. من الجلدة للجلدة كما تقولون..

المهم.. لبيتُ "دعوة حراء".. وبين يدي "حراء" لا تكون إلاّ التلبية والحضور الفوري.. وسمعاً وطاعة يا "حراء"..

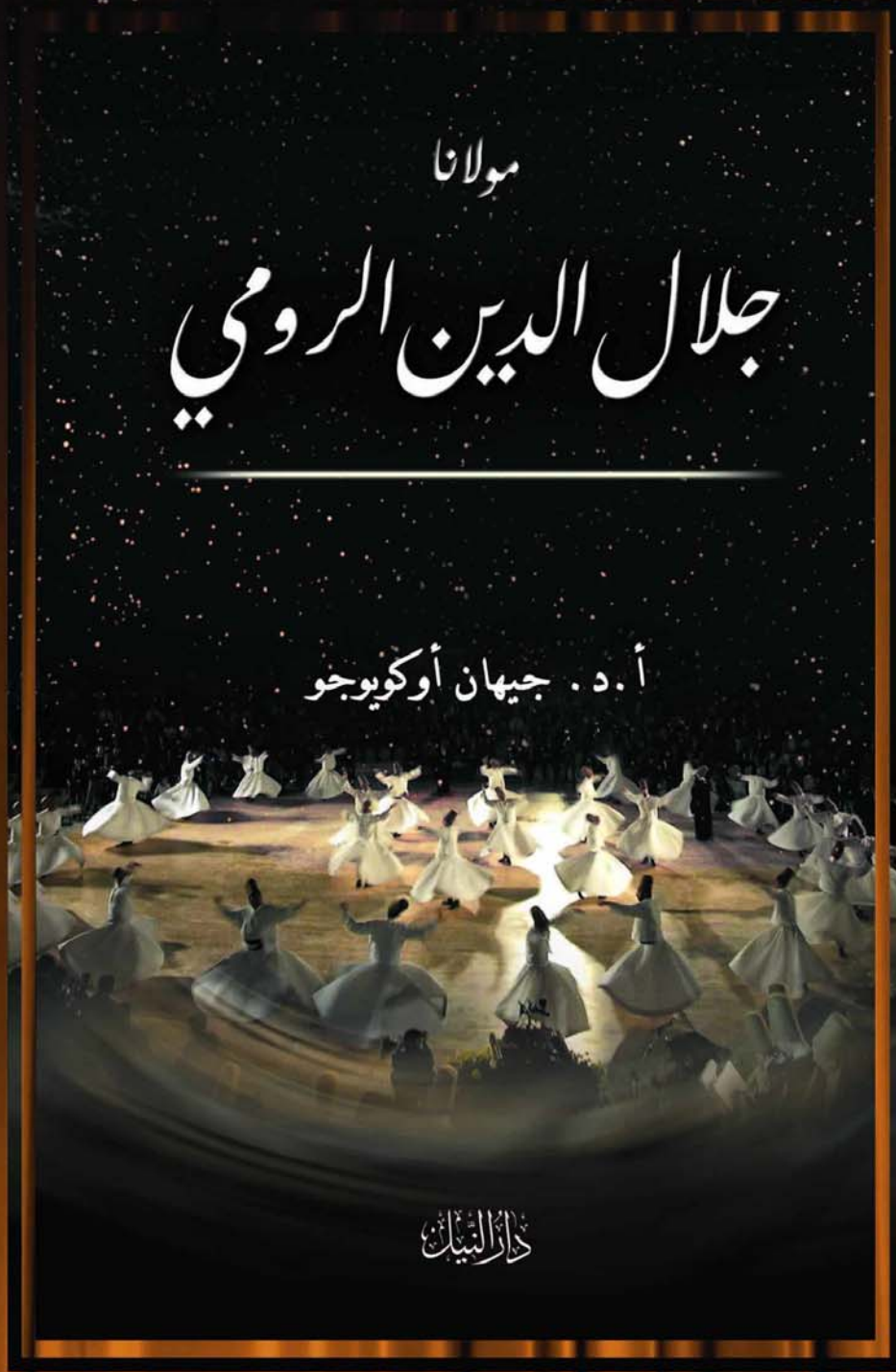
وجئت "حراء".. جئتُها روعي قبل جسدي تسبقني، جئتُ وأفكار رأسي تراحمي.. أيّ "حراء"!! من قلب الصحراء أنتِ، من عمق البادية ولدتِ، من وراء الذكريات والتاريخ تحضرين فنية قوية لكأنك ابنة لحظتك.. تجيئين بعد ألف وأربعمائة عام وتزيد من السنين أنيقة متجددة تجيئين..

ومن أين تجيئين "يا حراء"؟.. من أين تجيئين؟..

(*) كاتب صحفي من اليمن.



- غيوث هاطلة على جمرات الوجدان وأنداء على نيران الأشواق.
- من أعظم ما سطره قلم على لوحات الوجود الإنساني.
- المترجم بصدق عن هوائف الروح وأنات الصّواد.



مركز التوزيع فرع القاهرة : ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر - القاهرة / مصر

تليفون وفاكس : +20222631551 اهااتف الجوال : +20165523088

www.daralnile.com





إن من عرف طريقه، وعرف الهدف الذي يتوجه إليه، وكان واثقاً من القوة التي يستند إليها..
استطاع أن يرقى إلى الذرى ويتجاوزها فيصل إلى الشاهقة مرات ومرات.. تصغر الأرض تحت
أقدامه، وتفتح السماوات صدرها لعرفانه، وتتحول العوائق إلى جسور تنقله إلى أهدافه..

